



الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام

١٥٢٠-١٥٩٥م

رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:

سناء علي شاهين

إشراف:

أ.د. عقيل نمير

العام الدراسي ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

فهرس المحتويات:

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	و
المقدمة	١
تمهيد تاريخي	١٠
الفصل الأول-الدور السياسي للحرم الهمايوني:	١٨
أولاً-أبرز القصور العثمانية	٢١
١-سراي بورصة	٢٤
٢-سراي أدرنة	٢٥
٣-السراي العتيق	٢٥
٤-سراي الطوب قابي	٢٦
ثانياً: مهام القصور العثمانية:	٢٨

٢٨	١- على الصعيد السياسي
٣١	٢- على الصعيد الإداري:
٣٢	أ- الديوان الهمايوني
٣٧	ثالثاً- الحرم الهمايوني:
٤٣	١- المحظيات ومراتبهن
٤٥	٢- أبرز محظيات القرن السادس عشر:
٤٧	أ- الجارية حفصة ١٤٩٥-١٥٣٥م
٤٧	ب- الجارية روكسلانة ١٥٢٠-١٥٥٨م
٤٩	ج- الجارية نوربانو ١٥٦٤-١٥٧٦م
٥٠	د- الجارية صافية ١٥٧٦-١٥٩٥م
٥١	استنتاج الفصل الأول
٥٢	الفصل الثاني- الدور الاجتماعي للحرم الهمايوني:

٥٥	أولاً- المرأة العثمانية قبل فتح القسطنطينية
٥٦	ثانياً- موقف السلاطين الأوائل من المحظيات
٥٧	ثالثاً- ألقاب السلطان ومهامه
٦٠	رابعاً- منصب الصدور العظام:
٦٢	١- صفاتهم
٦٢	٢- صلاحياتهم
٦٣	خامساً- مشيخة الإسلام
٦٤	سادساً- موقف المسيحيين من ضريبة الغلمان
٦٧	سابعاً- دور الحرم اجتماعياً
٧٣	ثامناً- نظام الحرمك:
٧٤	١- وضع المحظيات في الحرمك
٧٥	٢- حياة المحظيات في الحرمك

٧٨	٣-تحكم المحظيات بشؤون الدولة
٨٠	تاسعاً- دور المحظيات في تفكك الأسرة العثمانية:
٨٠	١- تنافر الأسرة
٨١	٢- غياب السلاطين عن الحكم
٨٢	عاشراً- دور الخصيان اجتماعياً
٨٤	استنتاج الفصل الثاني
٨٦	الفصل الثالث- الزواج من الأجنيبيات وتأثيراته على بلاد الشام
٨٨	أولاً-التزايد اليهودي في الدولة العثمانية
٩٢	ثانياً-مصروفات السراي الهمايوني:
٩٣	١- بذخ السلاطين وتبذيرهم
٩٤	٢-مطبخ السراي الهمايوني

٩٥	ثالثاً-أوضاع ولايات بلاد الشام في القرن السادس عشر:
٩٦	١-الولاية في ولايات بلاد الشام
٩٨	٢-الضرائب المفروضة على ولايات بلاد الشام
١٠٠	رابعاً-الأعمال الخيرية لمحظيات القرن السادس عشر
١٠٤	استنتاج الفصل الثالث
١٠٥	الخاتمة
١٠٧	الملاحق
١١٤	المصادر والمراجع

ملخص الموضوع

يُسلّط البحث الضوء على الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام بين عامي ١٥٢٠ - ١٥٩٥م، وتعد هذه الفترة من الفترات المهمة في تاريخ الدولة العثمانية، فتبدأ بحكم السلطان سليمان القانوني الذي يعدّ من أقوى سلاطين بني عثمان، ففي عهده وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى اتساع لها، ومن ثم تولّى ابنه السلطان سليم الثاني، وتنتهي الدراسة بنهاية حكم السلطان مراد الثالث، وتمثّل هذه المرحلة وما بعدها أكثر المراحل التي تدخّلت فيها الحريم بشؤون الحكم، وبداية غياب السلاطين عن ساحات المعارك، ولهوهم في أحضان الجواري، تاركين قيادة الدولة الى صدورهم العظام ومن خلفهم المحظيات.

ورصدَ البحث أهم القصور العثمانية، ومهامها على الصعيد السياسي، والإداري، وحياة المحظيات داخل تلك القصور، والطريقة التي جيء بهنّ إليها، والمهام التي أوكلن بها.

وأيضاً أبرزَ البحث تعداد لأهم محظيات القرن السادس عشر، وتفصيل الأعمال التي قُمن بها من (تولية صُدور عظام، وعزل، وقتل، وتَحكم بمسار الدولة العثمانية بما يخدم مصالح بلدانهم.....).

بالإضافة الى استخلاص انعكاس دور تلك المحظيات السياسي والاجتماعي ضمن أملاك الدولة العثمانية، وضمن ولايات بلاد الشام بوجه خاص.

اعتمد البحث على عدد من الوثائق العثمانية المترجمة، وعدد من المصادر، والمراجع العربية والأجنبية المهمة.

وأبرزُ ما توصل اليه البحث من نتائج، هو أثر الدور الذي تركه تدخل المحظيات في شؤون الحكم، وغياب السلاطين ناسين واجبههم تجاه البلدان التي يحكمونها، وما نتج عن ذلك كله من انهيار الدولة فيما بعد وانتقال حكمها الى أيدي أوروبية.

المقدمة:

تعددت الرؤى بشأن الدولة العثمانية، وظلّت نشأتها، وأصولها الديموغرافية، وديانته مجهولة لعقود لدى خاصّة المسلمين وعامّتهم، وهيمنت سطوتها على الآفاق وتسبّبت في نشوء الاضطرابات في منطقتي الأناضول والرومي،^(١) ولاسيما المغول،^(٢) الذين بدأوا يضربون ما حولهم من قوى معادية لهم، والتي لا تخضع لسلطانهم، ولهذا أرغمت قبيلة قايي (الحجر) إلى اعتماد ترحالٍ مجهولٍ وغامضٍ، وبعد تحرك القبيلة شرقاً وصلت إلى أعالي الفرات وحاول قائدّها عبور النهر بحصانه، إلّا أنّ قوّة وغزارة النهر أغرقته، فانتشله أفراد قبيلته ودفنوه بالقرب من قلعة جعبر عام ١٢٣١م.

انقسمت القبيلة على نفسها بعد غرق قائدها، قسم برئاسة سنقورتكن وأخاه كون طوغدي، آثرا العودة إلى موطنهم الأصلي ولم يُعرف عنهما شيء، والآخر برئاسة آرطغرل وندو اللذين فضّلا المغامرة متابعين طريقهما إلى سهول الأناضول.

سأقت الأقدار آرطغرل وأخاه إلى آسيا الصغرى، وهناك شاهدا سلطان قونية (علاء الدين السلجوقي) يُقاتل المغول، فاندفع آرطغرل بك بمن معه يقاتل إلى جانب السلطان علاء الدين السلجوقي، وحوّل هزيمته إلى نصر، فكافأه سلطان قونية، ومنحه قطعة أرضٍ في منطقة سكودا الواقعة في الشمال الغربي من الأناضول المتاخمة للدولة البيزنطية، وقد دُهِش آرطغرل بك وقبيلته بما حصلوا عليه، فقد أشعرتهم الأرض بوجودهم الإنساني من جهة، وأن لهم أرضاً ملكاً شرعياً من جهة أخرى. هذا الشعور توارثه أبنائهم وأحفاده، وفي عام ١٢٨١م توفي آرطغرل فخلفه ابنه عثمان الذي قاد القبيلة إلى تكوين دولة منذ المراحل الأولى، وقد أظهر لقادته ومقاتليه تقديره

(١) منطقة الأناضول: تسمى الأناضول أو آسيا الصغرى، وهي منطقة جغرافية وتاريخية قريبة من شرق أوروبا، وهي تشكّل شبه جزيرة، أما الرومي: الاسم العام الذي أطلق على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا، وانتقل الاسم إلى اللغة العربية باسم الرومي/ للمزيد: صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، مكتبة الملك فهد، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ١٢٩.

(٢) المغول: من سكان منغوليا الواقعة بأواسط آسيا، وينتمون إلى الشعوب التركية، فهم باختصار التتار/ للمزيد: باشا، جودت، تاريخ جودت، مطبعة سي، استانبول، ١٩٥٨م، ج ٢، ص ٢٥٨.

للأرض، وتمسكه بها، كما أكد لهم، أن الأرض لا تحيا من دون لغة، فأمر بعثمة كل شيء يقع بأيديهم، وتقديراً له وتيمناً به سُميت دولته بالعثمانية.

إن إحساس عثمان وخلفائه بالأرض ومكانتها، دفعهم جميعاً إلى الارتباط بها بموجب قواعد وأنظمة غير قابلة للتطور والتبدل، ولهذا ظلت الأرض خاضعة لإرادتهم بقوة السلاح رهناً بالدولة وتنظيماتها، علماً أنها سعت جاهدة لتطبيق الشرع، هذا الالتزام حتم ضرورة البحث عن وسيلة تملكهم للقوة العسكرية لفرض هيمنتهم على من حولهم، وفرض وجودهم على الجميع.

من هذا المنطلق أثر البحث دراسة الدولة الناشئة بمختلف الجوانب ولاسيما السياسي الذي أفرزه تمسكهم بالأرض والعسكر لضمان هيمنتهم العسكرية، وهذا ما دفع السلطان مراد إلى ابتداء نظام يحقق له، ولدولته الناشئة القوة الضامنة.

إن قراءة الدولة سياسياً وعسكرياً وما حقته من توسع وهيمنة عسكرية أوصلتهم لبسط سلطانهم على جزء من القارات الثلاث (آسيا - افريقية - أوروبا) وضمت تحت جناحيها بلداناً وأقاليم شملت أربعاً وعشرين ولاية غرباً و أربعاً وثلاثين ولاية شرقاً، و لم يكتفِ السلاطين العثمانيون بما أضفوه على أنفسهم من ألقاب علمية وتفاخرية، بل أسبغوا على أنفسهم صفات دينية، جمعوا من خلالها، تراث الخلفاء الراشدين وتركات الأمويين والعباسيين، ولتأكيد هيمنتهم الدينية على العالم الإسلامي، أعلنوا مسؤوليتهم عن العالم الإسلامي وحماية أراضيه من الطامعين، وبهذه الوسيلة فرضوا على المسلمين دفع ضرائب لعساكرهم من باب المجاهدة الدينية، وبذلك خارق احتضن العثمانيون الدين الإسلامي، وأفتوا بما يناسبهم من خلال المشيخة الإسلامية.

أولاً - أهمية الدراسة، وسبب اختيار الموضوع:

عُدَّت هزيمة يلدرم بايزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م أمام تيمورلنك في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م، ووقوعه بالأسر، ووضعه في قفص حديدي، وقُدوم زوجته أوليفيرا (دسيبينا) الصربية للتشفي به، ومبالغة تيمورلنك في إكرامها، أدى إلى موت السلطان بايزيد الأول قهراً.

إن أوليفيرا الصربية قَدِمَت للتشفي بزوجها السلطان بايزيد الأول، بعدما كانت بادئ الأمر رافضةً الزواج به، غير أن أخاها إسطفان ملك الصرب، وضَّح المكاسب الخاصة لها والمكاسب العامة التي ستقدمها لشعبها، وشرح لها، أن قريبة لها تزوجت بالغازي أورخان بن عثمان

عام ١٣٢٦-١٣٥٩م، وها هي ماريا ابنة ملك البلغار قُبِلَت الزواج بالسلطان مراد الأول ١٣٥٩-١٣٨٩م، وقال لها إِنَّ السلطان يلدرم لا يحمل من الإسلام إلا اسمه وسلطانه، فهو مسيحي من ناحية أمه، وبقبولك يا أختاه تصونين الدماء المسيحية، وهي الدماء القوية والأكثر تأثيراً في سلاطين بني عثمان، وإن رفضك يا أختاه يعني شتّه الحرب علينا، ونحن لا قُدرة لنا على مواجهته، أخبريني ماذا سنفعل؟ ثم انظري يا أختاه أن ملوك بني عثمان، تزوجوا من نساء روميات وصربيات وبلغاريات، وهم يشبهوننا بالبياض والعيون الزرق، وبزواجك، نتمكن من إذابة الدّم التركي، فضحكت معلنة قبولها، فطلب منها أن تَحْطَ بيدها رسالةً له، وبعدما وقَّعت على الرسالة، مَهَرها أخوها بختم ملكه، وسلطانه، وأرسلها مع سفيره، طالباً منه إحضار الجواب، ما إن قرأ بايزيد الجواب حتى رد عليها بالإيجاب، فجاءته مُجَهَّزة بموكب عسكري مهيب، ظل مضرب الأمثال، وقابلها بموكب أعظم وأهيب من الموكب الذي جاءت به.

وبناءً على ما تقدم، فإن هناك تحولات خطيرة، شهدتها بداية دولة بني عثمان في إطار التكوين أبرزها:

١- بايزيد قتل أخاه يعقوب لوشاية، فعاتبه قومه، فأجابهم قائلاً: إن أمير المؤمنين ظلّ الله في أرضه يجب أن يكون وحيداً، كما أن الله واحدٌ في السماء.

٢- إذا أدرك قومه وأنصاره أن السلطان يلدرم بايزيد لا يجامل في وحدانية مُلكه وسلطانه، فكيف انضوى تحت إمرة أوليفيرا وهو معروف بشغفه بالنساء؟

٣- لقد تناسى، أن والده قُتِلَ على يد صربي طعنه بخنجرٍ مسمومٍ وذلك عام ١٣٨٩م.

٤- هاجم الإمارات المجاورة من دون سببٍ سوى فرض هيئته وسلطانه عليها، وحينما اصطدم مع تيمور لنك، لم تهب تلك الإمارات كعادتها لمساعدته فانهمز أمام تيمور لنك.

٥- استفاد حفيده مراد الثاني ١٤٢٣ - ١٤٥١ م من خطيئته بمهاجمته الإمارات المجاورة له،

فسالم جيرانه من الممالك الإسلامية، وفي عام ١٤٤٤م، خرج عن طاعته ابراهيم أمير إمارة (قرمان) وكان باستطاعته اقتحامها، لكنّه لم يفعل فعلة جدّه يلدرم بايزيد.

ولأنه خاف من غضب الإمارات الإسلامية التي قدّمت خدماتٍ جليلةً لأبائه وأجداده، فقد لجأ إلى علماء المذاهب، وعرض عليهم فعلة إبراهيم، فأفتى العلماء جميعاً بوجوب قتله، لأنه خرج عن طاعة أولي الأمر.

٦- عُدّت أوليفيرا آخر أميرة أو (زوجة) تأتي على هودجٍ، وأقيم لها عرسٌ، يعدُّ أول عرسٍ شهدته

دولة بني عثمان (كَلَّف العرس مبالغ باهظة أفقرت الخزينة).

٧- لم يكن السلاطين العثمانيون الأوائل يبحثون عن النسب، قياساً بحساب مصالحهم، إمّا مقابل أرضٍ أو زواجٍ مقايضةً.

٨- تمكّن محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية بعزيمته وإصراره على احتلالها من جهة، وتجاهله لنداء أمه التي ظلت على مسيحيتها، ولأنها لم تكن راضيةً عن تصرفه، وبعد استيلائه على القسطنطينية طالبته بالعودة إلى بلادها فسمح لها، وتوفي ابنها محمد الفاتح قبلها بسبعة سنوات، وتألّمت لموته.

٩- نتج عن الزواج من المحظيات الأوروبيات أيضاً:

أ- بما أنها جارية وليست زوجة، فإن أنجبت غلاماً تبنّاه، وإن أنجبت بنتاً يهجرها، ويسمح لها بالخروج من السراي الهمايوني^(١)، أو بالبقاء في قصر الدموع مع ابنتها، وغالباً لا يعترف بها.

ب- إذا مرض السلطان أو أصيب بكارثة لا يحق لها التشقي، فهي جارية. وأي سلطان لم يعاشر أقل من ستة محظيات من مختلف الجنسيات عدا المسلمات؟ على ضوء ما تقدم ونتيجةً لانسحاق السلاطين خلف محظياتهم، أُديرَت السلطنة العثمانية بدءاً من عام ١٥٣٥ م حتى عام ١٦١٦ م من قبل ثلاثة نسوة هم:

-روكسلانة زوج سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦ م :

ظلت لسنوات جارية، ولم تتيّسْ وعادةً تقول له، لقد أحببتك وأخلصت لك وأنجبت لك خمسةً من الأبناء، وأنا سريرتك بالنهار وخليلتك بالليل، أفلا تعاملني معاملة جواريك اللاتي زوجتهن بأفضل رجال الدولة؟

لم يستطع السلطان سليمان معارضتها طويلاً، فاستدعى قاضي إستانبول علي الجمالي ذات صباح وقال له:

- هذه المرأة، أُعْتِقْها من العبودية، وأريدُها زوجةً لي، وكل ما يخصها قد أصبح مُلكاً خاصاً لها.

(١) همايون: لفظة فارسية تطلق على السلطان والملك العزيز من الناس وتعني مبارك، ويطلق اسم سفر همايون، سيف همايون، طربوش همايون، أي أن المنطقة أو الأشياء التي يلمسها السلطان يُطلق عليها همايون، أي أنها المباركة/ للمزيد: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ٢٢٦. وأيضاً معجم الرائد والوسيط.

وكتب أحد البنوك الأجنبية في استانبول يومئذ يقول:

((هذا الأسبوع حدث شيء غريب تماماً في هذه المدينة: شيء غير عادي في تاريخ السلاطين العثمانيين، فلقد اتخذ الملك المعظم سليمان لنفسه زوجة جارية سلافية تدعى روكسلانة، وقد أقيمت الحفلات والولائم، وهناك أقاويل كثيرة حول هذا الزواج، ولا يستطيع أحد أن يفهم معناه))^(١)

ما يمكن أن يُقرأ، أنه منذ عام ١٤٠٢م حتى عام ١٥٢٥م لم يُعقد زواج سلطان رسمي على جارية سوى روكسلانة، فهل يا ترى تقتدي بها محظيات أبنائه وأحفاده ويحققن لأنفسهنّ، ما حققته روكسلانة؟ ولماذا سمّت نوريانو نفسها زوجةً، وبعد وفاة زوجها تسمّت السلطانة الوالدة، وبما أنّ السلطان سليم الثاني طوّع بناتها، فلماذا لم تطالبه بالزواج بها رسمياً؟ والحال نفسه لمن تلاها من المحظيات؟

-نوريانو زوجة السلطان سليم الثاني ١٥٦٦ - ١٥٧٤م^(٢):

شجعت زوجها على اللهو وشرب الخمر (الذي كان يؤمنه له يوسف منده نانسي) في قصر خالته بعدما تزوج بابنتها وحوّله إلى كارخانه (خمارة)، ووعده السلطان سليم الثاني أن يعينه ملكاً على قبرص بعد فتحها عام ١٥٧٠م، وكانت نوريانو تُسيّر أمور الدولة، والسلطان لا يعلم من شؤون دولته شيئاً، وتوفي السلطان سليم الثاني في أثناء جريه خلف جارية في الحمام، فانزلقت إحدى رجليه ووقع على الأرض والدم ينزف منه وكان قد حذّره طبيبه سابقاً من شرب الخمر، لكنه لم يقلع عنها، ويتميّز عن سبقه من السلاطين أنه لم يأمر بسجن أو قتل بعوضة، ومع الأسف أنه قضى حياته طائشاً لا يعلم أنه سلطان إلا عندما يصحو من سكرته.

(١) يهودية بولونية المولد، تربية روسية، أهداها ملك القرم للسلطان سليم الأول، فقَدَمَتها زوجته اليهودية (حفصة) هدية لابنها سليمان، وكانت صغيرة العمر ربّتها، واعتنت بها، وتعامل الأمير سليمان معها كخليفة، وبإصرارها وإلحاحها، تمكّنت من الزواج به شرعياً، وتعد أول مُحَظِيّة عُقد قرانها من بعد عام ١٤٠٢م وهي الوحيدة من بين المحظيات والأخيرة/ للمزيد: مؤنس، حسين، الجارية روكسلانا تتزوج السلطان سليمان الفاتح، مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت)، ص ٩٠.

(٢) يهودية اسبانية، كان أهلها قد هُجّروا منها واستوطنوا مدينة إزمير، فأعجبت بها روكسلانة حينما رأتها، فأسكنتها الحرم الهمايوني واختارتها زوجة لابنها سليم الثاني/ للمزيد: طرخان، بابا أوغلو، كيف وصلت نوريانو إلى السراي، استانبول، ١٩٦٥م، ص ١٨.

صافية زوجة السلطان مراد الثالث ١٥٧٤ - ١٥٩٥م^(١):

كان محمد الثالث وبتوجيه من والدته صافية قد أرسل أربعاً وعشرين أخاً له إلى سجن قصر بايزيد في وسط استانبول، وتفيد المصادر المؤرخة من السراي الهمايوني، أن معظمهن مُتَن خنقاً، ومن فُرت نجت بحياتها، لكنهن عشن كمواطنات عاديات.

ثانياً- إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في فهم أسرار الحريم الهمايوني، وعدد المحظيات والمهام التي يُكَلَّفُ بها غير إسعاد السلطان الحاكم، وطريقة عيشهن وأعمالهن في القصر، وموقف السلطان من المحظية التي تخالف الأوامر، هل يُعفى عنها؟ أم تفرض عليها عقوبات صارمة كقطع الرأس أو الطرد؟ وهل سُمِحَ للراغبة بمغادرة السراي؟ أسئلة كثيرة وغموض أسود يقتضي من البحث إيضاحه، وماهي أفعال السلاطين، هل كانوا يعاملون المحظيات معاملةً حسنةً كما كان يعاملهن السلطان سليم الثاني؟ أليس قطع الرأس محرّم بالإسلام؟ ماذا أبقى هؤلاء السلاطين من مبادئ الإسلام؟ الجوامع والتكاي والزوايا التي أُقيمت بجهد شخصي وليس بتوجيه سلطاني؟

بالطبع ليس من مهام البحث التطرق للشرع الإسلامي، طبقه أو لا، لكن الإشكالية: لماذا انساق سلاطين القرن السادس عشر الميلادي خلف جارية واحدة؟ فروكسلانة بعد ثلاثين عام زواج من السلطان سليمان استبدلها بجارية نمساوية اسمها فيلاريا أطلق عليها زهرة البان، فلماذا لم يُجرّدها من نفوذها عليه، (روكسلانة يهودية، هذا يدركه سليمان جيداً) وسليم الثاني ترك لزوجته نوريانو وحدانية القرار، ولأحقّ بارليتا التي استقدمها من جوارى شقيقته مهرماه وذاب بها، ألّهذه الدرجة جرّده نوريانو من نفوذه عليها وعلى دولته؟ طالما أنه لم يفارق بارليتا التي أطلق عليها اسم بديعة وهي إيطالية الجنسية، وأجمل من نوريانو بكثير، وهل ذلك لأن روكسلانة يهودية ونوريانو هي الأخرى يهودية؟ لماذا كثر الزواج بالمحظيات؟ والأجنبيات تحديداً، أليست المسلمات صالحاتٍ للزواج، حقيقةً المسلمات غير صالحات، والذلّ الذي تحملته المحظية الأوروبية، ليس مجرد متعةٍ أو جوعٍ أو مالٍ، أو جاهٍ، فالفتيات الأوروبيات معروفاتٌ بعزة

^(١) مسيحية كاثوليكية اختطفها شبان عثمانيون من حفلة أقيمت في إحدى قصور روما أسمها (إيزابيلا) تزوجها مراد الثالث وسماها صافية لصفاء وجهها/ للمزيد: تولبنتشي، فيردون، عشق السلاطين، بيروت، دارا الروائع، (د.ت)، ص ١٢٣.

أنفسهنَّ، ولا يقبلنَّ الذَّلَّ، صبرن على تجاوزات العثمانيين وصابرن، وأدركنَّ ضرورة إضعاف الغول قبل سلخ جلده، وأن العثمانيين كالسمك لا يموت ما لم يفسد رأسه، وهذا ما فعلته المحظية الأوروبية، لم تقتل العثمانيين ولم تذللهم، فقط أفسدت رؤوسهم.

ألا يكفي السلطان أربع نساء بدلاً من مئات؟ أو ما ملكت أيمانكم؟ على ضوء هذين السؤالين يمكن استنتاج ما يلي: ألم يسهم هذا الزواج بتتافر الأسرة؟! ألم يسهم في ضياع الكفاءات وتحجّب السلاطين، وتركهم لدولة خضع التاريخ لها؟! ألم يسهم هذا الزواج في تبذير الأموال يميناً وشمالاً؟ ألم يخلق تنافساً بين محظيات السلطان الواحد من جهة وأبنائه وبناته من جهة أخرى؟

ثالثاً- منهج البحث:

إن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج التاريخي الاستقرائي القائم على تحليل الأحداث ومفاهيمها، وغاياتها، وخلفياتها، وما ترتب عليها من نتائج، ثم تعرض الدراسة على المنهج التركيبي، الذي يعمد إلى فككة الأحداث ومسبباتها، ثم إعادة صياغتها بأسلوب علمي، بالاعتماد على المنهج العلمي المقارن الذي يرفض التعاطف أو المجاملة، مع الأحداث مهما كانت سلبية أو ايجابية، وبهذا المنهج قد يتمكن البحث من تحليل دوافع توافد محظيات أوروبا، إلى السراي الهمايوني، وما يُقدّم لهؤلاء المحظيات من ذهب ومجوهرات كما يخصّص لهنّ خزينة خاصة حيث تغدو لدى الدولة العثمانية ثلاث خزائن رئيسة (خزينة السلطان وهي ثلاث غرف من المجوهرات والحلي)، و (خزينة الحرم الهمايوني)، وهي موارد مالية تأتيها كضرائب من الولايات، وتقدر الخزائن بحسب الوثائق بالملايين (أقجه) ^(١) و (دوقة) ^(٢) ناهيك عن الهدايا الأخرى و (الخزينة العامة التابعة للدولة).

(١) الأقجة: هي وحدة من وحدات النقد العثماني المضروبة من الفضة، ومشتقة من آق التركية، وتعني أبيض، ومن جة الفارسية وتعني صغير، ومعناها القطعة البيضاء الصغيرة، واختلفت قيمتها من وقت لآخر/ للمزيد: عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩٢٤م، د.ط، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ص ١٨٠.

(٢) الدوقة: الاسم الذي أطلقها المؤرخون العثمانيون على فلورنسا، وقيل هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديماً، وهي محرفة لكلمة **دوكاتو**: الإبطالية وكان يزن بين عشرة إلى اثنتي عشرة فرنكاً/ للمزيد: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ١١٥.

هناك دراستان:

- زواج السلاطين: تعداد دون تعليل أو تحليل.
- دراسة محدودة: ركزت على تأثير بعض المحظيات على السلاطين.

أما الدراسة المزمع إعدادها فتتناول قرابة قرن، وهي تركز على ثلاثة محظيات دفَعْنَ الدولة إلى هاوية الانحراف، وانسحاب بعض سلاطين القرن السادس عشر من الساحة، وغدت الدولة تُدار بهوانمها وصدورها العظام كواجهة إدارية لدى العامة، ومما زاد من صعوبة البحث، أن ما تسرب عن دائرة الحرم، طوته الأيام، ووثائقه محدودة، ناهيك عن تكتّم العثمانيين على مآسيه، وهذا لا يعني أن السراي الهمايوني ليس له إيجابيات، هذه النظرة ظالمة وغير منصفة، والبحث غير معنيّ بالطعن بغير حق، فهناك سلاطين ظلّموا أكثر مما ظلّمت أيّة محظية، وهناك مَنْ قُتِلَتْ ظلماً، فلا لوم على قاتلها، فقد تلقى أمره من سلطان مخمور، أجرها على الله، وذنبها على صاحب القرار أما من حيث الفائدة أو التأثير، فأبي بحث في هذا المجال قبل كل شيء يمنح الشجاعة وينلّمس الكثير من الخطوات التي تهيئ لاستمرار الكتابة.

قسم البحث إلى مقدمة وتمهيد تاريخي وثلاثة فصول وخاتمة:

-تحدثت المقدمة: عن نشأة الدولة العثمانية وتوسعها.

-أما التمهيد: فقد تحدّث عن دخول المحظيات إلى القصور العثمانية.

-يتناول الفصل الأول: الدور السياسي للحرم الهمايوني: وأبرز القصور ومهامها، ولاسيما قصر الظلمات (الطوب قابي)، ودورها على الصعيدين السياسي والمحلي، وتطرق إلى الديوان الهمايوني باعتباره المؤسسة الرئيسة في إدارة الدولة وما مرتبة كل محظية تتجب ولدأ؟ أو تتجب بنتاً؟ ومن أشهر محظيات فترة الدراسة؟ وهل وُلِدَتْ فيما بينهنّ منافساتٌ لإيصال أبنائهن إلى ولاية العهد وتلقّيهنّ بالسلطانة الوالدة؟ واختتم الفصل باستنتاج لما ورد فيه.

-تطرق الفصل الثاني: الدور الاجتماعي للحرم الهمايوني:

إلى معالجة عدّة نقاط أساسية فيما يتعلق بالدور الذي أداه الحرم الهمايوني، وعلاقة السلطان الحاكم بزوجاته (والأصح محظياته)، ودور الصدور العظام السلبي والإيجابي، والصلاحيات التي مُنحت لهم، ودور الحريم في تفكيك أواصر الأسرة العثمانية وأيضاً دور مشيخة الإسلام، وعالج ظاهرة القتل ونتائجها السلبية على بنية الدولة، وهل اقتصرَت مهمة المحظيات على جانب واحد

وهو السلطان أو كانت لهنّ مهام أخرى؟ علماً أن الحرملك مؤسسة فيها الحلو والمر من الأحداث، وبما أن المسيحيين هم المعنيون بحماية الدولة، لأن أولادهم (الإنكشارية)، وبناتهم (المحظيات)، وحتى الخصيان الذين انتزعت إنسانيتهم فإنّ قسماً كبيراً منهم من المسيحيين ولاسيما في منتصف القرن السادس عشر فترة الدراسة، ألا يكفي هذا؟ أم أن العثماني يتألم ما لم يأخذ كل ما يريده وبالقوة الجبرية؟ وخُتم الفصل باستنتاج.

أما الفصل الثالث: الزواج من الأجنيبيات وتأثيراته على بلاد الشام:

يتضمن: التزايد اليهودي في الدولة العثمانية وأثره على بلاد الشام، من وضع ولاية يتحكمون بالعباد وغير ذلك، وأيضاً تناول هذا الفصل مصروفات السراي الهمايوني وبذخ السلاطين وتبذيرهم ومصروفات المطبخ بالتفصيل، وأيضاً الضرائب المفروضة على ولايات بلاد الشام، وفساد الدولة على الأصعدة كافة، وانتشار الفوضى وبيع المناصب، وتعميق الفساد وتعميم الفوضى، بل أصبح العرش ساحة صراعٍ لدرجةٍ تزايدت معها المؤامرات واستخدمت أساليب أكثر وحشية، ولُقبت روكسلانة بطبّاخة السمّ في السراي الهمايوني، كل هذا وغيره انعكس سلباً وخراباً على ولايات الدولة العثمانية ومنها ولايات بلاد الشام.

صحيح أن المحظيات اعتمدنَ على مختلف أنواع الأسلحة، والأساليب التي تحقق أمانيهن وأهدافهن، إلا أنهنّ قُمنَ بأعمال خيرية انعكس بعضها خيراً، لكن معظم أعمالهنّ تركزت على بلدانهن أولاً ومصر ثانياً وبلاد الشام ثالثاً، تمثلت خيراتهن بالضغط على بعض الولاة لتحقيق أهدافهن لاسيما اليهوديات (حفصة، روكسلانة، نوريانو)، واختتم الفصل باستنتاج قرأ بعض النقاط التي تعرّض لها الفصل.

لقد واجه البحث صعوبات جمّة لقلّة المصادر وندرتها، وما حصلت عليه إشارات محدودة ورغم ندرتها، غير أنها رسمت لي الطريق، وباعتمادي على أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عقيل نمير الذي أخذ بيدي وصوّب أخطائي، فإنني أتوجه إليه ببالغ الشكر والتقدير، وباعتمادي على ما قدمه لي الأستاذ الدكتور المرحوم محمود عامر رحمه الله وأسكنه فسيح جنّانه، من وثائق عثمانية مترجمة من قبله قبل وفاته، وأخص بالشكر والتقدير أعضاء لجنة المناقشة المؤلفة من الأستاذ الدكتور عبد المنعم الأحمد والدكتور وضاح فوفل على تكرمهم بقراءة الرسالة وتصويب الأخطاء، وأيضاً الشكر لرئيس قسم التاريخ الأستاذ الدكتور أحمد الخضر وأعضاء القسم الكرام، وإلى كل من قدم لي مساعدة جزيلا الشكر وأعظمه. (والله وليّ التوفيق)

تمهيد تاريخي:

أجمع معظم المؤرخين المختصين بالتاريخ العثماني وعلى معرفة تامة بلغتهم لقراءة تاريخهم، قراءة علمية حقيقية تخلو من تعاطف، أو كراهية، أن مطلع القرن الرابع عشر، بداية ولادة دولة خرجت من رحم القبيلة القادمة من أواسط آسيا هرباً من ضغط المغول عليها، ولم يدر في خلد قادتها تكوين إمارة حققها قائدها أرطغرل بك بمساندته لسلطان قونية علاء الدين السلجوقي الذي كان يخوض حرباً مع المغول، وبمساندة أرطغرل وقبيلته له حوّل هزيمته إلى نصر، فمنحه قطعة أرض في الشمال الغربي من الأناضول، تُسمى (سكودا)، وهي تقع على الحدود البيزنطية، فإن انتصر أرطغرل بك على البيزنطيين، يكون قد أراح السلطان علاء الدين السلجوقي من أعدائه التقليديين الذين أنهكوا قواه الاقتصادية وحولوا سلطنتهم للرد على هجمات البيزنطيين محاولين، تغريمه برسوم وضرائب، وإن هُزم أرطغرل أمام البيزنطيين، يكون السلطان قد تخلص من جميل صنعه له أرطغرل بك، إن منح القبيلة منطقة (سكودا) أرضاً لها أشعرها بوجودها الإنساني من جهة، وأن لها أرضاً ملك شرعي من جهة أخرى، هذا الشعور توارثه أبنائه وأحفاده فورثه ابنه عثمان عام ١٢٨١م وقاد القبيلة إلى تكوين دولة بداياتها دولة جهادية ومقاتليها شجعان أخافوا من حولهم من جهة، وتدافع الجميع لمساندتها في حركاتهم الجهادية من جهة أخرى^(١).

(١) اينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد أرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢م، ص ١٤-١٧.

غدت مناطق الأناضول مأوى لكثير من الشخصيات السياسية الهاربة من المغول، ووجدت بلجوتها إلى المنطقة الحدودية^(١) مكاناً يقيها اعتداءات المغول، كما تجمع الكثير من أبناء الريف والمدن في منطقة الأناضول للانضمام إلى القبيلة التي تولى قيادتها عثمان خلفاً لأبيه أرطغرل الذي توفي عام ١٢٨١م، وبفضل شجاعته وتحقيقه انتصارات باهرة حاز على احترام الجميع حيث أعلن الجهاد ضد البيزنطيين كما أعلن قيام دولته التي سميت باسمه بعد وفاة السلطان علاء الدين السلجوقي عام ١٢٩٩م حيث غدا بمقدوره إعلان الخطبة وسك العملة باسمه.

إن قراءة تاريخ القبيلة قبل دخولها الأناضول عام ١٢٣١م، كانت دول عدة تقاتل البيزنطيين تحت حماية السلاجقة أمثال الخلافة العباسية في العراق، ودولة علاء الدين السلجوقي، لكن دخول القبيلة وحصولها على سكودا هدية من السلطان علاء الدين السلجوقي حولها قيادة جميع القوى المعادية للبيزنطيين، لاسيما بعد تبنيتها الجهاد ضدهم، كما دفع دولة علاء الدين السلجوقي للالتحاق بالغازي عثمان الذي نقل مركز دولته إلى قره حصار^(٢)، وحصن مدينة يكي شهر (المدينة الجديدة) وجعلها مركزاً له، وقد حكم بالقسط وأنصف المظلوم وطبق العدالة، وظل يشن حملات مكثفة ضد أعدائه، وبعدما حاصر مدينة إذنيق^(٣)، كلف ابنه الغازي أورخان بالتوجه إلى

(١) تبعد عن مدينة قونية ١٠٠ كم هي نقطة نهاية أملاك الدولة البيزنطية، وحصار لكثرة الجبال الشاهقة والقلاع التي بناها البيزنطيون/للمزيد: اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية...، ص ٢٢.

(٢) قره حصار: مدينة تبعد ٣٠ كم (ومعناها الحصان الأسود)/ للمزيد: إسماعيل باير، القبيلة الهائمة، بغداد، ١٩٧٦م، ص ٣٤.

(٣) إذنيق: مدينة داخلية تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بورصة، وتبعد عنها باتجاه الداخل ٥٠ كم/ للمزيد: آصاف، عزلتو يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٣٦.

مدينة بورصة^(١)، وبعد حصار دام عدة شهور، تمكن من دخولها وأثناء فتحها استدعاه والده فوجده يصارع الموت، وفي عام ١٣٢٦م فارق الحياة فدفنه في بورصة، وبما أن والده أسند إليه قيادة القبيلة فقد عين أخاه علاء الدين وزيراً له وطلب منه سن الأنظمة التي يقبلها العباد، في حين انصرف أورخان لمقاتلة أعدائه^(٢).

كان جيش الغازي عثمان مكون من فرق (جماعات) قبلية، وقد تخوف من تحزبها، فأشار عليه أحد حكام عصره يدعى (جندرلي قره خليل أو جاندرلي قره خليل) بأخذ أبناء الأسرى المسيحيين وتدريبها وإعدادها بحيث لا يعرفون أباً ولا وطناً ولا قومية غير السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله لعدم وجود أهل لهم . فأعجب الغازي أورخان بهذا الرأي وأمر بتنفيذه، ثم سار أورخان بعدد منهم إلى أماسيا^(٣) حيث يسكن الحجي بكطاش وطلب إليه تسمية عساكر، فباركها ووضع قبعته على رأس أحدهم لحمايتها من أعين العامة وسماها (ينجري) وترجمت الانكشارية^(٤) وإذا أردنا قراءة مراحل التاريخ العثماني، كما سماه خليل إينالجيك، فلا شك أن

(١) بورصة: هي مدينة بأسيا الصغرى اتخذها الغازي أورخان عاصمة للدولة العثمانية بين عامي ١٣٢٦-١٣٦١م/ للمزيد: ابن بطوطة، شمس الدين محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار احياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣١٦.

(٢) بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزولها، د.ت، ١٩٥٤م، ص ١٢٥.

(٣) أماسيا: وهي أهم مدن الإمارة التركمانية سيواس وتقع في أسيا الصغرى/ للمزيد: القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م، ج ٥، ص ٣٥.

(٤) الحجي بكطاش: متصوف واليه تُنسب الطريقة البكطاشية، البكطاشية طريقة صوفية أقرب إلى التشيع من بقية الطرق الصوفية التي يعج بها الأناضول. ينجري: هي بالأصل بني تشاري لر وبعد الاختصار أصبحت ينجري و تعني الجند الجديد، يقال حسب الروايات أن أورخان ابن عثمان قد اصطحب فرقة من المجندين إلى الحاج بكطاش ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم اسماً، فوضع الحاج بكطاش فوق رأس أحدهم وقال أن القوات التي أنشأها ستحمل اسم بني جري وستكون وجوههم مضيئة وتخليداً لبركة الحاج بكطاش أصبح الجند الجديد يضع قلنسوة على رأسه كذكرى له/ للمزيد: صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ٤١.

الإمارة العثمانية نمت وكبرت في ظل العالم الإسلامي، وأن المسلمين من عرب وأكراد والمنظمات الآخية (الدينية) المتمركزة في الأناضول، آزرت تلك الإمارة التي لم يكن عدد فرسانها يزيدون عن ٤٤٠ فارساً، وبتطبيق نظام خمس الأسرى، استطاع أورخان تكوين نوعين من القوات العسكرية، المشاة والمسلم (الذين اسلموا وقاتلوا حتى أهلهم) ، وإن نواة الجيش الانكشاري أسسه السلطان أورخان لأن الأعباء الملقاة على امارته الصغيرة التي كانت في طور تأسيس الدولة أكبر من امكانياتها وخصوصاً بعد أن أصبحت الدولة البيزنطية تنتظر إليها بعين الخوف لذا كان عليه تأسيس جيش نظامي للدولة المرتقبة^(١).

بالإضافة إلى ذلك ان قلة الجيش الذي كان يعود إلى بلاده بعد انتهاء الحرب حتم على الغازي أورخان إنشاء هذا الجيش. ناهيك عن ذلك إن أخوه علاء الدين لاحظ تعصب قبلي انعكس على كل فريق من الجنود وأدى ذلك إلى زعزعة الاستقرار والتآلف بينهم وكل العوامل السابقة الذكر دفعت الغازي أورخان إلى ايجاد وحدة بين القوات العثمانية فأشار عليه جاندولي خير الدين بأخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن أهلهم وذويهم^(٢)، وخصوصاً بعد سيطرة قواته على مناطق من البلقان وسقوط أعداد لا بأس بها من الأسرى^(٣).

(١) شرف، عبد الرحمن، دولت عثمانی تاریخی، ج ٢، معارف ناظرات جلیه سنک، استانبول، ط ١، ١٣٠٩هـ، ج ١، ص ٧٠.

(٢) البناء، سونيا محمد سعيد، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، ايتراك، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١٢.

(٣) محمود، سيد محمد سعيد، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازدهار)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٤٢٤.

بالطبع هناك مصادر لتزويد هذه القوة العسكرية تتمثل في:

أ-بنجك أوغلانر (عجمي أو جاكلر).

ب-نظام التجميع (دوشرمه) وتشكيل عجمي اوغلانر.

أولاً- بنجك أوغلانر (أولاد الخمس):

استمر السلطان مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩) بإكمال ما بدأه أبوه الغازي أورخان حتى عصر السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١) بأخذ أولاد الخمس من الأسرى وتشكيل أولاد الأعاجم والتي لبث حاجة الجيش الانكشاري من الجنود^(١). وبالتالي أولاد الخمس (بنجك أوغلانر) هم من خمس الأسرى المقررين كضريبة للدولة^(٢). والدولة تتصرف في هذه الحالة حسب منفعتها. ويطلق عليها (بنجك أي الخمس) وبما أن الدولة لها الخيار في معاملة الأسرى اقترح الفقيه رستم القرمانى وبتأييد من القائد جاندركلي قره خليل على السلطان مراد ادخال حصة الدولة (١/٥) في الجيش وتسجيلهم فيه^(٣). وعُدَّ هذا قانوناً ونص على:

١- الأسرى الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية يأخذ منهم الضريبة.

٢- الأسرى الصالحون للخدمة أطلق عليهم اسم الغلام الأعجمي وعليه ان أولاد الخمس

شكلوا أساس قوات (عجمي أوغلانر) ثم أطلق عليهم فيما بعد بالقابى قول (عبيد

السلطان) لكن لم يعاملوا معاملة العبيد حسب المصطلح.^(٤)

(١) كوندوز، أحمد، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، ٢٠٠٨م، ص ٧١.

(٢) محمود، سيد، تاريخ الدولة العثمانية...، ص ٤٢٤.

(٣) كوندوز، الدولة العثمانية المجهولة، ص ٧١-٧٢.

(٤) قفلجملی، حکمت، التاريخ العثماني رؤية مادية، دار الجليل، دمشق، د.ت، ص ٢٠٦.

ثانياً-نظام التجمع (دوشرمة)^(١):

وتشكيل (أعجمي أوغلانر): يذكر اسماعيل حقي أوزون تشارشلي بعد معركة أنقرة عام ١٤٠٢م توقفت الفتوحات العثمانية بشكل مؤقت وبعض المناطق سيطر عليها البيزنطيون فانخفض عدد أولاد الخمس (أولاد البنجك)^(٢) في وقت كانت الدولة بحاجة للشبان هنا بدأت الفكرة بأخذ أولاد المسيحيين الذين هم من رعايا السلطنة لذا أخذ السلطان مراد الثاني (١٤٢٠-١٤٥١) قانون الدفشرمة والهدف منه تقوية فرقة الانكشارية بأعداد من الشبان فقد ثبت بأنه عملي أكثر من نظام (أولاد البنجك) وتم تطبيقه في بلاد البلقان (الروميلي) ومع نهاية القرن الخامس عشر توسع هذا النظام فشمّل مسيحيي الأناضول^(٣).

إذا أراد البحث استنباق الأحداث، لتحديد مسار البحث، لم يكن للانكشارية أي دور سياسي يُذكر في الدولة العثمانية إلا بعد عام ١٥٧٤-١٥٩٥م فالسلطان سليمان القانوني لم يكن عظيماً وإنما عصره عصر العظماء أمثال (إبراهيم باشا فاتح العراق، بياليه باشا، طرغود باشا، خير

(١) الدفشرمة: اسم من (ديو شرمك) ويعني الجمع أي جمع الأولاد المخصصين للجيش وأطلق عليه اسم ضريبة الدم ثم ضريبة الأنفس ثم ضريبة الأولاد، وبدأ تطبيقه في عهد السلطان مراد الرابع أي جمع أو ؟أخذ أولاد المسيحيين الذين هم من رعايا السلطنة. ثم تحديد- أقاليم خاصة في الروميلي (ألبانيا واليونان وصربيا والبوسنة والهرسك). للمزيد/ الأرناؤوط، محمد، دراسات ووثائق حول الدف شرمة، قدسية للنشر، اريد، ط١، ١٩٩١م، ص٣٥-٣٦.

(٢) أولاد البنجك: محرف كلمة بينج بك الفارسية التي تعني الخمس واستخدمها العثمانيون للدلالة على خمس الأسرى المأخوذون في الحرب وتسجيلهم في أوجاق المستجدين بموجب القانون الخاص به ليلتحقوا بخدمة الدولة العثمانية بعد أن يتم تدريبهم/ للمزيد: صابان، المعجم الموسوعي....، ص٦٦.

(٣) أوزون، اسماعيل حقي، تشكيلات الدولة العثمانية، أوجاق القابقول، أنقرة، ١٩٤٣م، ص٩. (ترجمة الدكتور عبد المنعم الأحمد).

الدين بربروس، قلع علي، وسليمان باشا^(١)، ناهيك عن الصدور العظام الذين أدوا دوراً كبيراً في قيادة الدولة.

لم تستمر الدولة العثمانية في قتال مناطق المسيحيين، في القسطنطينية تنتهي أحلامهم بالتوسع، لكنهم تناسوا أنهم ليسوا وحدهم على الكرة الأرضية، وتناسوا أن أوروبا الغارقة في مشكلاتها الداخلية، ليست بعيدة عنهم، وهي في تطور دائم، ومن دون دراية، تسللت إلى بنائها الداخلي من خلال بناتها الذين قبلوا أن يُستقبلوا محظيات في قصور بني عثمان، وقد قدّم نماذج من حسن السلوك والأدب، غير أن تجاوزات العثمانيين غير الأخلاقية، دفعت تلك الفتيات للتعامل بحسب الواقع المفروض عليهن، ومن المستحيل على البحث إيضاح الجور والظلم الذي تعرضنّ له، لأن الكثير من المؤرخين العثمانيين لا علاقة لهم بالسراي الهمايوني، فضلاً عن حرص السلاطين ألا يطلّع العامة على أسراهم وتجاوزاتهم والتشويه للأخلاقي الذي مورس على تلك النواعم الذي يخجل النسيم من الاقتراب منهن، غير أن السلاطين مزقوا جدار الخجل، وسلكوا معهن غرائب الممارسات من الإعدام إلى بقر البطون للحوامل، فضلاً عن مسألة القتل التي شملت الرضع ممن ولدتهن تلك المحظيات، رغم قراءة الحرم الهمايوني بما تمكن الوصول

(١) **بيال باشا:** من أكبر أمراء البحر العثمانيين، شغل منصب أمير الأسطول العثماني، قام بأعمال مجيدة في البحر وانتصر في عدة معارك ضد الجمهوريات الإيطالية. **طرغود باشا:** اسمه في المصادر التركية طرغود وفي المصادر العربية درغوث وفي أخرى طرغول، وهو أحد الفاتحين البحريين العثمانيين أصله يوناني، كان باي الجزائر وجربة، وبايلر باي البحر المتوسط وباي ثم باشا على طرابلس الغرب. **وخير الدين بربروس:** أحد أشهر قادة الأساطيل العثمانية تولى منصب حاكم إيالة الجزائر ١٥١٨م ألحق هزائم كثيرة بالدول الأوروبية. **قلج علي باشا:** من رجال البحر العثمانيين من أصل إيطالي أصبح قبطان بحري للأسطول العثماني في القرن السادس عشر ساهم في استتباب الأمن في الشمال الإفريقي. **سليمان باشا:** من أصل شركسي تولى منصب الصدر- الأعظم ١٧١٢م مع معظم وزارة البحرية العثمانية، ثم أصبح والياً على مدينة حلب وقبرص ١٨٧٥م للمزيد/ الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥م.

إليه من معلومات، غير أن هناك أحداث في غاية الأهمية، أُلْتُفِت عن قصد، لِمَ فيها من أسرار عن تصرف السلاطين مع المحظيات اللواتي تُرَكَت مقاليد الدولة بأيديهن، فتصرفنَّ بها دون حسيب ولا رقيب، فانتسعت دائرة الفوضى في مؤسسات الدولة، وتدخل ساسة أوروبية من خلال اليهودية روكسلانة بصنع القرار، وبدأت الدولة العثمانية تتهاوى مؤشرة إلى عقلاء الدولة أن اليهودية روكسلانة، هي وراء كل الفرمانات التي أصدرها السلطان سليمان القانوني لإرضائها^(١). ونعتقد أنه عن جهل مطبق تناسى أن أهالي الولايات، كانوا يأملون من السلطان القانوني العقلانية، لكن تجاهله لمصالحهم أضاع نفسه وأبناءه، وقبل أن يُضَيِّع نفسه وعرشه أضاع رعيته، تأكد من فعلته بعدما طوته السنون، فورثت الدولة الفساد، وبانسياقه خلف روكسلانة، جسد الفساد، ويخطئ من يتصور أن العثمانيين حكموا ولاياتهم، وإذا كانت تلك الولايات قد التزمت السكينة والهدوء، فلصرامة السلاطين واعتمادهم سفك الدماء وإباحة المحرمات، فضلاً عن منحهم الطرق الصوفية صلاحيات واسعة، بحيث شملت أبناء العلاقات الإقطاعية والدينية في عموم الولايات ولاسيما ولايات بلاد الشام (حلب، دمشق، طرابلس) الصلاحيات التي نالتها الزعامات الصوفية في الأناضول وغيره، فتاجرت تلك العائلات بالبضاعة العثمانية ووجدت بالعثمانيين ضالّتهم، فسرقَت ونهبت واغتنت دون وازعٍ من ضمير وعلى حساب الدين والشرعية والوطن.

(١) مؤنس، حسين: الجارية روكسلانا، ص ٦٥.

الفصل الأول

الدور السياسي للحرم الهمايوني:

أولاً-أبرز القصور العثمانية:

١-سراي بورصة.

٢ -سراي أدرنه.

٣-السراي العتيق.

٤-سراي الطوب قابي.

ثانياً-مهام القصور العثمانية:

١-على الصعيد السياسي.

٢-على الصعيد الإداري:

أ-الديوان الهمايوني.

ثالثاً-الحرم الهمايوني:

١-المحظيات ومراتبهنّ.

٢-أبرز محظيات القرن السادس عشر.

أ-الجارية حفصة ١٤٩٥- ١٥٣٥م.

ب-الجارية روكسلانة ١٥٢٠-١٥٥٨م.

ج-الجارية نوربانو ١٥٦٤-١٥٧٦م.

د-الجارية صافية ١٥٧٦-١٥٩٥م.

رابعاً-استنتاج الفصل الأول

لم يبن الفاتح قصر الطوب قابي (باب المدفع) كمجمع للمحظيات كما يشاع، بل ليكون مؤسسة حكومية تدير شؤون دولته برعايته ورعاية خلفائه، وينضوي القصر بكل أقسامه وقواه البشرية تحت مؤسسة تسمى الديوان الهمايوني برئاسة السلطان الحاكم، ويتحمل الديوان الهمايوني توزيع العمل لمختلف أقسامه فضلاً عن مسؤوليته عن الشؤون المالية، وتأمين خزائن الدولة بتنظيم الشؤون الضرائبية في عموم الولايات من خلال كادر متخصص بالشؤون المالية سُمي المسؤول عنها **خزنجي**، وفي عهد القانوني سمي **دفتر دار باشي**، يمثل في عموم الولايات موظفون ماليون يسمى كل منهم **دفتر دار الولاية** وعلاقته مع **دفتر دار باشي** في استانبول ويتلقون أوامرهم منه، وتسند إليهم مهمة نواب الولاية، يديرون الولايات بغياب الولاية أو في حال وفاة أي منهم.

يُخطئ من يتصور أن السراي الهمايوني عبارة عن قصر لسكن السلطان ومرافقيه، ومحظياته وخصيانه وحاشياته، بل هو مؤسسة، يتحمل إدارة الدولة بكل ولاياتها، من خلال الديوان الهمايوني الذي ينظم شؤون الدولة، أما بشأن السلامك (مكان إقامة الرجال) والحرملك (مكان إقامة النساء)، فإدارتهما مرتبطة بالسلطان حصرياً أو من يكلفه، كما يكلف الباب العالي (الصدر الأعظم) بتسيير شؤون الدولة، ويتلقى تعليماته من السلطان من خلال (باب أندرون) القسم الداخلي في السراي العثماني، أما (باب البيرون) فهو القسم الخارجي، ويرتبط بالسلطان، لأنه القسم السياسي في السراي الهمايوني فمنه تُدار شؤون الدولة الخارجية السياسية، يعاون السلطان في إدارة الدولة الصدر الأعظم، أما إدارة السراي فمن مسؤولية الديوان المسمى الديوان الهمايوني، أما في السلامك، **فكتخدا** القصر (نائب، معتمد)، وأغا السراي وعدد كبير من المرافقين والنواب الذين يختارهم السلطان لسراياه، أما قسم الحرملك، فلا يحق لولي هذه الدخول إليه ولا لغيره نهائياً، تديره وتشرف على كل شؤونه والدة السلطان، وينوب عنها **كتخدا الحرملك**.

أما الجانب السياسي: فهو بالأصل مرتبط ارتباطاً خاصاً بالسلطان الحاكم من حيث العلاقات بين الدول، وإعلان الحرب أو توقفها، وقبول الدبلوماسيين، ويوجه أمره إلى الصدر الأعظم بمعاقبة ممثل أية دولة تحاول الاعتداء على الدولة العثمانية.

أما الجانب الاقتصادي: فعليه تقوم مقومات الدولة واستمراريتها، ويُعد الكادر المالي من أكبر دوائر الدولة نفوذاً، ومقره في السراي الهمايوني، يشرف عليه موظف خاص يُسمى دفتر دار باشي، وهو مسؤول مسؤولية مباشرة عن الشؤون المالية ليس في السراي فقط بل في عموم مناطق الدولة ولا يجرؤ دفتر دار باشي على القيام بعمل مهما كان صغيراً قد ينجم عنه خطأ لأنه قد يؤدي بفاعله إلى حبل المشنقة، ولهذا دأب الجهاز المالي على التزام الدقة في إجراء الحسابات، وفي الوقت نفسه مُنح استقلالية شبه تامة (ويُعدّ الجهاز المالي الجهاز الوحيد الذي يحظى بهذه الاستقلالية).

وأما الحاشيات الداخلية والخارجية: فمهمتها بالإجمال رهناً بالسلطان الحاكم ووقفٌ عليه، وهما أهم حواشي السراي، ولكل جزءٍ من جسم السلطان كادره الخاص، يهتم بما هو مسندٌ إليه، والخطأ ممنوعٌ البتة، وأما طائفة الخصيان الطواشية (سود-وببيض) و قبل افتتاح قصر الطوب قابي كان يتم تدريبهم وتجهيزهم وتعليمهم في مؤسسة خارج القصور العثمانية، ونظراً لفشل تلك التجربة، تقرر أن تتم تربيتهم داخل سراي الطوب قابي وبإشراف السلطان وبما أن الأولاد الذين يُجمعون أعمارهم لا تزيد عن خمس سنوات، فقد عُهد لقسم الحرملك والمربيّات والدايات الاهتمام بهم إلى أن يبلغوا العاشرة من العمر، عندها يتولى آغا الإنكشارية إعدادهم عسكرياً.

أولاً-أبرز القصور العثمانية:

إن تمكّن القبيلة من الوصول بقواتها إلى بورصة، وتحويل قلعتها إلى قصر حربي لوضع الخطط الحربية ضد قياصرة بيزنطة الغارقين في الاقتتال فيما بينهم، سمح للعثمانيين البداية أن يحولوا قبيلة الخيمة إلى دولة قصور، يتوافد العالم بأسره للوقوف على عتبات السلطان الحاكم، طالبين رفع الضريبة والجزية عنهم، ومع الأسف أصبح سلاطين العثمانيين فيما بعد لا يغادرون دائرة الحرمك، يسهرون ويرقصون ويشربون ويمارسون المويقات، وفوق هذا يحق لهم شرعياً أن يلقبوا أنفسهم بلقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وحالما بلغ الفاتح القسطنطينية منتصراً، شرع قتل الأخوة، وكان آباؤه وأجداده قد حللوا الزواج بالمحظيات دون تسجيل شرعي ودون الاعتراف بأنهن من المخلوقات البشرية، يُقتلن ويُرميهن في البحر طعاماً للأسماك والحيتان، وأباح قانون نامه لهم، أن تلك المحظيات ليسن إلا سلعة ليس لها ثمن، ولا حتى بشر يحسب حسابه.

لقد تمكّن العثمانيون من خلال التظاهر بإسلامهم المتشدد من إقامة دولة إسلامية، تولت قيادة العالم الإسلامي لقرون عدة، وقد دأب السلاطين العثمانيون على التمسك بجزء من الشريعة الإسلامية، علماً بأن أمهاتهم بدءاً من الغازي عثمان حتى السلطان محمد وحيد الدين مسيحيات أو يهوديات ورغم ذلك تمسك هؤلاء السلاطين بالشريعة على الأقل في عهد الفتوحات، وبهذا الصدد يقول دوسن doison (سواء أكان للسلم أم للحرب أو لنظام سياسي أم لقانون عسكري أو لعقاب وزير أم لقائد عام، كان العثمانيون يلجؤون إلى المفتي طالبين فتواه، وكثيراً ما كانوا يفاوضونه (المفتي و كبار العلماء) قبل صدور الفتوى، إذ لا يكفي الاطمئنان إلى جواز الأمر شرعاً بل من الواجب استفتاء علماء الدين ولاسيما رئيسهم^(١).

وقال أحمد رفيق عن المفتي (كل شيء في المملكة تحت نفوذه لأنه هو نائب السلطان المطلق في الأمور الشرعية والمدنية سواء ... وله مقام سام حتى إنه إذا قدم يخف السلطان لاستقباله

(١) عامر، محمود، جوارى القصور العثمانية، الهيئة العامة للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١٩م، ص٢٩.

ويتقدم سبع خطوات على حين لا يتقدم لاستقبال الوزير الأول إلا ثلاث خطوات، فضلاً عن ذلك فإن للمفتي أن يُقبل كَتَف السلطان بينما هو لا يسمح لكبير الوزراء تقبيل ذيل ثوبه^(١).

لقد شكلت معركة أنقره (الماعز البيضاء) ^(٢) التي هُزم فيها العثمانيون منعطفاً اجتماعياً حاداً، انعكست على إدارتهم وعلى وضعهم العائلي بسوء لا مثيل له، حيث رفضوا الزواج بالحرائر، ودأبوا على الزواج بالنساء الأوروبيات المستوردات.

وكل من تتجب غلاماً تلقب (كازه كي وتلفظ خاصكي) وهو لقب خاص بأمهات أبناء السلاطين، أما من تتجب أنثى تلقب **خاصكي قادين**، منذ ذلك التاريخ بدأ السلاطين يحاولوا أن يتعاملوا مع رعيّتهم بعدل، لكن تعلقهم بالمحظيات، أبعدهم عن الإدارة، وتساووا مع رعيّتهم بالإهمال والحسرة، لأن سلاطين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، أصبحوا مساكين لآحول لهم ولا قوة، يستحقون الشفقة، لانغماسهم في الملذات وسعيهم الجاد والحثيث لانتقاء الجميلات، وبعضهم سفك دماء دون ذنب يذكر كالسلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م الذي دس السُم لوالده وقتل وأعدم وبقر البطون، وابنه سليمان ارتكب مجازر لا تحصى بحق الشركس، ومراد الرابع الذي قتل إخوته وارتكب مجازر في منطقة اللاذقية وما فعله السلطان عبد الحميد الثاني بحق الأرمن وقس على ذلك^(٣).

على ضوء ما تقدم يمكن القول: إن القصور التي ابتناها العثمانيون الأوائل، كانت مهامها حربية قبل وصولهم إلى القسطنطينية، وليس هناك مجال لممارسة اللهو والمجون، فلجميع أحقية الدخول إلى قصر الخيمة دون إذن من أحد، فالخيمة آنذاك للقبيلة والمقاتلين كافة، من هذا المنطلق، ازدادت لحمة القبيلة، فسلطانهم هو قائدهم وهو حاميمهم^(٤).

(١) رفيق، أحمد، تاريخ العالم، استانبول، ١٣٠٦هـ، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢) معركة أنقرة: جرت بين يلدرم بايزيد الأول، وتيمورلنك، في أنقرة عام ١٤٠٢م، انهزم فيها يلدرم بايزيد وأُسِر ومات قهراً، وحملوا زوجته سبب موته، لأنها رأيته مقيداً بالحديد بقفص، من تاريخه أُلغ العثمانيون عن الزواج بالحرائر/ للمزيد: المحامي، محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية العلية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٣٠.

(٤) Aki, kamel mare: padisag anagark. Hdtanbul, defaKS PP58

لم يتصور سلاطين النشأة الأوائل أن الحياة قد تصفو مشاربها لهم ولأبنائهم، لأنهم اعتقدوا أن القتال مع البيزنطيين، قد يمتد لآخر العمر، ومن سينتصر أيضاً هو آنذاك في عالم المجهول، وإن ختام الحرب شهادة لا مفر منها، وكان الاعتقاد بالانتصار على العالم المسيحي شبه مستحيل، بناءً على تصور الغازي عثمان والغازي أورخان والسلطان مراد الأول ويلدرم بايزيد.

إن قراءة معمقة للتاريخ العثماني تُبين، أن للأعراف والتقاليد دورها، فإذا نجح العثمانيون في مهامهم الحربية، فإن عليهم تطبيق عدالة مغايرة لعدالة قياصرة بيزنطة الذين حكم التاريخ عليهم بالزوال، وسط هذه التجاذبات التي كانت، فإن مستجدات جديدة، فرضت عليهم تحويل القصور التي ستنبئ في استانبول كوثيقة انتصار العثمانيين على البيزنطيين، وبحسب تطلعاتهم المستقبلية لا للاستراحة وللترويح عن الجهد الذي بذلوه، لكن الأمان والأحلام ضاعت وسط كم كبير من المحظيات اللواتي جيء بهن من أصقاع الأرض.

لقد اتصفت السرايات (القصور) العثمانية بصفة بانيتها، مثل سراي بورصة وأزمير وإذنيق وأدرنه، حيث شهدت أجيالاً عديدة من الانكشارية، وتعبير آخر كانت السرايات مدارس عسكرية، وهي الخزان الرئيس لتزويد الجيش بمقاتلين لحسم معاركهم مع الأعداء بأقصى سرعة وتفيد وثائق الديوان الهمايوني، بأن العثمانيين لدى اصطدامهم مع أعدائهم، لم يكونوا يتركون لهم فرصة لاستراحة المحاربين ولا لغيرهم.

لقد سارع العثمانيون لفصل حريمهم عن الغير اقتداءً بمن حولهم، فهم كقبيلة بدوية، لا يعرفون فصل الرجال عن النساء، حتى عندما ابتنى آرطغرل بك لقبيلته بيوتاً في سكودا، فلم يفصلوا نهائياً، وحتى ابن القبيلة الذي تزوج بفتاة بيزنطية لم يعمد في منزله إلى الفصل ما بين الذكور والإناث، ولهذا أحكم السلاطين مسألة العزل من باب التظاهر بالإسلام، ودأبوا عليها حتى انهيار الدولة العثمانية عام ١٩٢٤م، وأقاموا لضيوفهم ولقاداتهم قسماً خاصاً بهم، أما المربيات والخصيان، فقد توزعت مهامهم ما بين زوجات السلطان والسلطان نفسه.^(١)

(١) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٣٤.

إن القارئ للسراي الهمايوني يلحظ أن السلاطين لم يعرفوا الازدواجية في سراياهم، وبالوقت نفسه، فإن أبناءهم، فقدوا بتلك السرايا حنان الأمومة وحتى الأبوة، لأنهم تربوا على أيدي جاريات اختلفت قومياتهم، ولهذا أسرفوا في فساد هؤلاء الأبناء فالسراي الهمايوني هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن رَسْم الدولة التي سيقم معها تمثيلاً دبلوماسياً أو يعقد معاهدات ود وصداقة، والديواني الهمايوني يشكل اللجنة العسكرية التي تمول الجيش لدى شن حرب مع دولة ما.

١ - سراي بورصة:

لقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أنه زار بورصة عام ١٣٣٣م عندما كان الغازي أورخان على رأس دولته الناشئة، وتضيف المصادر العثمانية أن ابن بطوطة هذا توجه بعد بورصة إلى مدينة إznيق والتقى هناك مع زوجة الغازي أورخان بيلون خاتون، لأن الغازي أورخان، كان قد اتخذ من مدينة إznيق مركزاً له، وعهد إلى زوجته بالإشراف على ضبط الأمور فيها، وقد كان من أول أعمال الغازي الخيرية مدرسة وعمارة في إznيق، وأقام في بورصة قصرًا لإدارة شؤون دولته أو مركزاً رئيساً للدولة المرتقبة مع بناء جامع فيها إن السراي الذي بناه الغازي أورخان في مدينة بورصة، تحول فيما بعد إلى مدرسة لتنشئة الغلمان.^(١)

وبحسب المؤرخ جودت، لم يبق منهم إلا ذكراهم أيضا، ولهذا تتعاقب الذكريات، تبكي مجدداً صنعه السلاطين الأوائل، الذين لم يفكروا بأن أبناءهم سيتخلون عن المبادئ التي اعتمدها، وأن الأموال التي أرهقوا رعاياهم بها بحجة الدفاع عن الديار الإسلامية، ذهبت لمحظيات رسمن الخطط لإزالة عرش بُني لأهداف سامية خاصة بهم، ولم يبنَ ليكون مرتعاً لمحظيات أوروبية وجميلاتها^(٢).

(١) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٣٥-٣٦.

(٢) جودت، تاريخ جودت، ص ٢٤١.

٢- سراي أدرنة:

إن استمرار قتال العثمانيين للروم البيزنطيين، أوصلهم إلى مدينة بورصة، ومنها دأب خلفاء الغازي أورخان على مواصلة عملياتهم الحربية، فوصل السلطان مراد الأول إلى أدرنه عام ١٣٦٥م فعمل على نقل مركز دولته إليها، تاركاً بورصة كعاصمة لدولته، واتخذ السراي القديم مقراً ومركزاً لإدارته، ومنها بدأ بمهاجمة أعدائه الذين بدأوا بالتحالف ضده، وذلك عام ١٣٨٩م في معركة (قوص أوه)، ثم بنى يلدرم بايزيد قصراً في أدرنه، عُرف بالقصر الجديد (السراي الجديد)^(١).

٣- السراي العتيق:

عامل محمد الفاتح المسيحيين عامة، ومسيحيي القسطنطينية خاصة معاملة حسنة حيث أبقى لهم كنائسهم وأديرتهم، ومنح رهبانهم صلاحيات واسعة كإدارة شؤون رعاياهم المسيحيين، أما الكنائس الصغيرة فقد أمر بتحويلها إلى مساجد وجوامع له ولقواته.^(٢) وقد عثر على دير قديم مهمل في وسط القسطنطينية، فأمر بهدمه لبناء سراي لإدارة الدولة، وبعدما اكتمل بناء السراي، دُهِش من جماله وموقعه غير أنه رفض الدخول إليه^(٣)، وأجاز لقادته تدريب عناصر الدفشرمه فيه، وقد ظل **ايچ أوغلانلر** (الغلمان الداخليون) يتدربون به حتى حدوث الواقعة الخيرية والقضاء على الانتكشارية عام ١٨٢٦م، حيث أمر السلطان محمود الثاني بتحويله إلى متحف تاريخي ولا يزال حتى تاريخه، وهكذا نرى أن العثمانيين قبل معركة أنقرة مع تيمورلنك، كانوا محاربين، لا دور للمحظيات في قصورهم، ولا دور لقسم الحرمك المخصص للحرم، وكان سابقاً مخصصاً للسلطان وعائلته، لأنهم في حالة حرب، وفي الوقت نفسه، لم يتصور أنهم سينتصرون على دولة لها تاريخها وتراثها، وربما حلموا باقتطاع بعض الأراضي منها، أما إزالتها من التاريخ والحلول مكانها، فهذا لم يتصوروه ولو بالحلم^(٤).

(١) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٣٧-٣٨.

(٢) أوزون، التشكيلات العثمانية، ص ٢٧٥.

(٣) على الأغلب لأنه يقع وسط المدينة وبالتالي لم يدخله خوفاً من تعرضه للخطر، أو ربما لا يتسع لموكبه (الطالبة).

(٤) الراقد، صابر مصطفى، الأصول العثمانية، مجلة الهلال، يونيو، لعام ١٩٢٤م، (ويقال إنها ضمت خمسة ملايين كتاباً).

بحسب واقع الدولة قبل سقوط القسطنطينية بأيديهم لم تكن القصور تحتوي محظيات من خارج الدولة، وكان للعمليات الحربية ولاسيما في أوروبا الشرقية دور كبير في جلب المحظيات فبسبب إعجاب العثمانيين بجمال فتيات أوروبا والانتصارات المتلاحقة للعثمانيين جلبوا الكثير منهن ولاسيما السلطان مراد الثاني حيث زوج الكثير منهن لقادته، وكبار موظفيه، ولم تمدنا المصادر العثمانية بمعلومات عن الشبان والشابات اللواتي يقعن في الأسر. في أثناء العمليات الحربية في أوروبا الشرقية التي ازدادت بسبب التمردات والاحتجاجات التي حدثت بسبب الضرائب الثقيلة، وأسر شبانهم^(١).

٤- سراي الطوب قابي:

بنى العثمانيون الأتراك قصوراً لأبنائهم وأحفادهم، وحكموا ولاياتهم من خلالها، وتوافد الأمراء والملوك والحكام إليها، ودون على الباب الرئيس المسمى باب همايون عبارة تقول (السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم)^(٢). من الصعب وصف محتويات السراي والتحدث عن مكانته على مختلف الأصعدة المفرحة والمؤلمة، لدرجة فإن معظم الدراسات سمّته قصر الظلمات حيث مساحته تزيد عن ٧٠٠,٠٠٠ م^٢ ويحيط به سور بطول ٢,٥ كم وعليه عدة أبراج للحراسة، وتخلله عدة أبواب يربعاها الخدم، والحشم، والمناوبون، والكتّاب والخصيان سود، وبيض، وتضمن لهم حياة آمنة، ويعيشون عيشة لا مثيل لها يحلم ملايين رعاياها بجزء من النعم التي يسبحون بها، لكن نهاية حياتهم في عالم مجهول، وهذا وفقاً على عقلية السلطان الحاكم، والسلطانة الوالدة.

بُني القصر على شكل مثلث، وله ثلاثة أبواب رئيسة، وُسمي بالطوب قابي (باب المدفع) لأنه حارس بحر مرمره، ومضيقي البوسفور والدردينيل، فضلاً عن أن معظم أقسامه الداخلية بنيت من الأخشاب التي رتبت ووضعت بشكل فني خلّاب، ومن باب همايون ترى كنيسة آيا صوفيا وبليه ميدان كبير، وعلى كل باب فيلا Köşk يتوسط كل ميدان حديقة نظمت بشكل جميل ورائع^(٣).

(١) William. Blackstone <commentaries on the Laws of England, vol. 1. 1896, pp 35

(٢) أوغلو، أكمل الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج ١، ص ١٥٣.

(٣) رفيق أحمد، عثمانلي تاريخي، ترجمة محمود عامر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٧٦.

بوشر العمل بسررايا الطوب قابي بعهد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٦٥م وتم الانتهاء منه عام ١٤٧٨م، ولم يتمتع الفاتح بالجلوس به لأكثر من ثلاث سنوات، حيث دُس له السم، عندما كان يشرب القهوة في الحديقة المواجهة للباب الرئيس (باب همايون).

يُعدُّ باب همايون من أكبر أبواب السراي، وقد أقر الفاتح استانبول عاصمة للدولة عام ١٤٧١م أي قبل وفاته بعشرة أعوام، وأمر بتقسيم السراي إلى ثلاثة أقسام هي: الأندرون، البيرون، والحرملك^(١).

أ- **أندرون (الداخل):** الاسم الذي أطلق على القسم الذي يبدأ من الباب الثالث من أبواب قصر طوب قابي وهو باب السعادة، ويشمل غرفة العرض والغرفة الكبيرة والخزينة الهمايونية، والمستودعات، وغرف الأمانات المقدسة والمطبخ السلطاني، ثم الباب الذي يؤدي الى الحرم السلطاني.

ب- **بيرون (الخارج):** تعبير عن التشكيلات الادارية للقصر، وهي كلمة فارسية تعني الخارج وكان يطلق في الدولة العثمانية على الخدمات الخارجية للقصر، ويسمى ما يقع بين الباب الهمايوني وباب السعادة ويشمل الموقع الأول والثاني وكان أفراد بيرون القصر ستة أقسام: طبقة الأمراء، طبقة العلماء، آغوات الركاب، المتفرقون، البلطجية، الخدمات المتفرقة الأخرى.

ج- **قسم الحرملك (للنساء وزوجات السلاطين):** وهو أهم أقسام السراي الهمايوني، وهو مخصص لسكن زوجات السلطان وبناته، وبحسب توجيهات الفاتح، بعدما تنجب له واحدة منهن غلاماً له، لا يجوز أن تسكن في سراي الطوب قابي لأنه مخصص للجواري والعبيد وأعضاء الديوان الهمايوني، غير أن روكسلانة، وبتأييد من حماتها والددة السلطان سليمان، أرغمت السلطان على أن تكون زوجته وأولاده بالقرب منه، ولهذا تُعدّ روكسلانة أول زوجة سلطان تدخل القصر وتسكن فيه، فخالف سليمان القانوني وصايا آبائه، فوصية السلطان مراد الثاني، بأن المحظيات للمتعة والرمي متى زهق السلطان منهنّ، والتزم العديد من السلاطين بوصية رمي المحظيات في البحر، وغالباً يدار القصر من قبل والددة السلطان الحاكم، وتلقب (بالسلطانة الوالدة) وفي حال وفاتها أو غيابها، فإن باش قادين أفندي (رئيسة النساء)^(٢) هي التي تتوب عن الوالدة، ومهمتها، الإشراف على السراي المخصص للحريم،

(١) أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج ١، ص ١٥٣.

(٢) ليس شرطاً، بعدما أصبحت إدارة الدولة بأيدي الحريم، لأن هانم السلطان، إذا غضبت منها، تغزلها، وتعين غيرها.

وتطلب من المربيات تهذيب المحظيات الجدد، وتدريبهن على إدخال السعادة للسلطان وكيفية التعامل معه، ومن يقع نظر السلطان عليها في أثناء عرضهنّ عليه، يجب أن تكون في تمام أناقتها وكل محظية، ترتكب هفوة مع السلطان في أثناء المعاشرة، ليس مصيرها الطرد من السراي فقط، ولاسيما إذا خرج غاضباً، فمصيرها الإعدام حالاً^(١).

ثانياً- مهام القصور العثمانية:

من المعيب القول إن القصور التي تحشد فيها قوافل من المحظيات، يمكن أن تقدم للدولة أعمالاً نافعة، لأن رجوع الحكام لنسائهم يعني فشل الأمور، فالنساء اللواتي اختُطفنّ أو تم شراؤهنّ أو أرسلنّ عن عمد، تضاربت الرؤى حولهنّ، فمن اختطفت فستسعى للانتقام ممن سبّب خطفها، وهم السلاطين والتي تم شراؤها، فهدفها المتعة والحلي والتفاخر، وأما من أرسلت عمداً، فمهمتها إضعاف الدولة العثمانية، لأنها مكلفة رسمياً^(٢)، وبحسب الوثائق فإن الكثير من المحظيات، ارتكبت أعمالاً مشينة مما تسبب بخطفهنّ، ومن جهة أخرى، فإن الكثير من المحظيات تزوجنّ بمن خطفهنّ منعاً من التشرد والضياع.

١- على الصعيد السياسي:

تعددت أدوار القصور سياسياً، وتتنوعت بحسب شخصية السلطان الحاكم، وقد تميزت مهمة القصور، ففي عهد الفاتح كان الخضوع ودفع الجزية هو الحل النهائي، وماعدا ذلك الحرب وضحايا وسيطرة وهيمنة، فالبندقية ليس لديها سياسة إلا القوة، وفي عهد السلطان سليمان القانوني شهد قصر الطوب قابي تحركاً سياسياً، قلما عرفت الدولة له مثيلاً، فقد توافد الملوك والأمراء من مختلف أصقاع الأرض، لطلب الود وإقامة علاقات ود وصداقة، وكان القصر يعج يومياً بوفود سياسية، واستحق لقب مركز الكرة الأرضية، كما وصفه **لطفی باشا**، وفي عهد خلفائه غدا القصر، حلم السياسيين، فاستعانوا بالمحظيات اللواتي ساقتهنّ الأقدار أو أرسلتهنّ معظم الدول الأوروبية، وبحسب قوميات المحظيات،

(١) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٤٤.

(٢) جودت، تاريخ جودت، ج ٤، ص ١٥٦.

فلكل دولة أوروبية لها محظية في السراي الهمايوني، وغالباً معظم المحظيات اللواتي يحظين بجمال وقوام متميزين عشنَّ معززات مكرمات، أما غير الجميلات فهنَّ للخدمة المتدنية وألعوبة يتناولها المقربون وأصحاب النفوذ في السراي^(١).

إذا كانت القصور هي رمز الحكم وعماد الدولة وسجلها التاريخي، فهي بلا شك أيضاً الوجه الآخر للدولة، فمن خلال القصور يقرأ المؤرخون طبيعة الحكم وهويته الإدارية، والنهج السياسي للدولة، وذلك من خلال الوفود التي تسارع لإقامة علاقات ودية، كعقد تعاون اقتصادي، أو تحالف سياسي، وموقفها من جيرانها، غير أن التاريخ أفادنا بصورة قاتمة عن القصور والضحايا التي زُهِقت أرواحها بصورة شرعية وغير شرعية، لدرجة أن المصادر سمّت قصر الطوب قابي بقصر الظلمات.

يتوافد العالم الأوروبي بمختلف دوله إلى قصر الطوب قابي لمقابلة سلطانه، وتتوعد أهداف زواره ولاسيما الأوروبيون، الذين وجدوا أن حاجتهم للدولة العثمانية ضرورية نظراً لاتساع أملاكها، أو على الأقل لتخفيف الضغط عنهم، أو تخفيف غراماتها ورسومها عنهم، ولعدم قدرتهم على دفع ما عليهم ومن باب التباهي^(٢)، لقد اعتادت الدولة العثمانية على التحرش بالآخرين، ولاسيما القانوني الذي شعر بخيبة أمل في عدم تمكنه من اقتحام فيينا، فقرر الانتقام منها بالتحرش بملكها، فكلف الرئيس طرغوت بمحاربة إسبانيا تأييداً لفرنسا، ويعلق لطفي على تدخل السلطان سليمان القانوني (أنه فتح دولته للتجاذبات السياسية المقرونة بالتآمر على بلاده، وتناسى أن العالم الكاثوليكي سيقف إلى جانبها ضده، وأولهم فرنسا، وإذا كانت الدولة العثمانية قد استباححت أوروبية الشرقية، دون تدخل خارجي، فبابا روما كان السبب المباشر والرئيس لذلك)^(٣). إن الاستكبار الذي طوق القانوني، أوقع دولته في كثير من الإرهاصات المخيبة للآمال، ومن دون سابق إنذار، قدم مكرماته للأوروبيين بأن منحهم امتيازات واسعة، وخطوته هذه نفذتها جاريته اليهودية روكسلانة التي تطلعت أولاً للانتقام بسبب إهانات الإسبان لليهود، وطردهم من أراضيهم، لكسب ود فرنسا بتوجيه من حاخام القسطنطينية، حيث شرح

(١) باشا، لطفي، مطالعة لطفي، إسطنبول، ١٢٨٩هـ، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) المحامي، الدولة العلية العثمانية، ص ٢٠٨.

(٣) فابيان، هنري، مأساة المسيحيين، هنغاريا، ١٩٥٢م، ص ٢٣. (كاتب أرمني، أعد كتاباً، أساء فيه لبابا روما واتهمه بالتحيز).

لها ماذا كتب له يهود فرنسا، ففي عام ١٤٨٩م كتب شامور حاخام مدينة آرال الفرنسية إلى المجمع اليهودي في استانبول رسالة يستشيريه في بعض المسائل الحرجة، ومما جاء في الكتاب:

(إن الفرنسيين في أكس وآرال ومرسيليا يهددون معابدنا، فماذا نعمل؟ فجاء الجواب كالآتي: أيها الأخوة الأعزاء، بأسى تلقينا كتابكم وفيه تخبروننا بما تقاسونه من الهموم والبلاء، وبمقتضى قولكم: إن ملك فرنسا يجبركم على اعتناق الدين المسيحي، اعتنقوه، لأنه لا يسعكم أن تقاوموه، غير أنه يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى راسخة في قلوبكم). بمقتضى قولكم: إنهم يعتدون على حياتكم، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم.

وبمقتضى قولكم: إنهم يهدمون المعابد اليهودية، فاجعلوا أولادكم كهنة ليهدموا كنائسهم». ١٣ تشرين الثاني ١٤٨٩م^(١).

(لن تنسى روكسلانة مأساة اليهود، وباستلام القانوني وإعلانه الزواج رسمياً بروكسلانة، يوم جاءها حاخام القسطنطينية، وطالبها بتحسين علاقة القانوني بفرنسا، ومنحها امتيازات لا تحلم بها لولا روكسلانة، ليس حباً بفرنسا، وإنما لكي لا تمارس ضغطاً على أبناء جلدتها لكن حفصة والددة السلطان سليمان هي صاحبة القرار في الدولة والسلطان سليمان فوضها بالشؤون الإدارية لدولته، ونوربانو منحت بريطانيا امتيازات، لأنها تهتم باليهود كيلا يتعرضوا لمضايقات البتة وأرادت نوربانو أن تكافئ بريطانيا على حسن تعاملها مع اليهود الذين يعيشون على أرضها، فمنحتهم امتيازات واسعة)^(٢).

(١) دفيتش، شويب سبيريد، حكومة العالم الخفية، ١٩٥٦م، ص ٧٠. (كتاب سياسي يتحدث عن مكر اليهود وغدرهم).

(٢) فيرو، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة عبد الكريم الوافي، طرابلس، ليبيا،

١٩٧٣، ص ٩٠.

٢- على الصعيد الاداري:

حرص السراي الهمايوني لعقود على إدارة الدولة يوم كان السلطان سلطاناً له هيئته، ويوم كان الصدر الأعظم إذا استدعاه يخف للمثول بين يديه، ويردد عبارات الطاعة والولاء دون أن يرفع رأسه، غير أن السلطان الذي قتل مخالفه وكارهيه، يُسرّع الخطى لمقابلة جاريته، وتفرض رغباتها عليه أمثال روكسلانة التي غافلتها، وحققت مآربها وغاياتها، يصعب عليه أن يعلم أحوال رعيته، وحتى مؤسسة السراي التي بات ينام بها بدلاً من جناحه الخاص. من المؤسف لدولة وأهلها أن يختبئ سلطانها في جناح الحرملك، وأن تُدَوَّن بحوث ومؤلفات تتعته بالسلطان العاشق، ومما كتب عن عظمتها عندما غدا ألعبوبة بيد جاريته روكسلانة (إنها قصة حب أسطورية، تعد من أشهر قصص العشق التي شهدتها القرن السادس عش، في تاريخ الدولة العثمانية، أنها قصة (سليمان وروكسلانة) أو السلطان سليمان القانوني، والسلطانة هويام، فبطل القصة هو السلطان العثماني سليمان القانوني أعظم سلاطين الدولة العثمانية وعاشر سلاطينها، وأما معشوقته وبطلة القصة، فهي الجارية الروسية خرّم أو (روكسلانة أو هيام) التي غدت الزوجة الثانية للسلطان العاشق، كما وصفته المصادر بما فيها العثمانية وللتغطية على سمعته، توج سليمان حبه وعشقه بهيام بأن تزوجها نتيجة إلحاحها، ومما قالت له (لماذا لا تتزوجني، وقد زوجت أجمل جواريك من أهم رجالك، وأضافت: لقد أحببتك، وأخلصت لك، وأنجبت لك خمسة من الأبناء، وأنا سريرتك بالنهار، وخليتك بالليل أفلا تعاملني معاملة جواريك اللائي زوجتهن بأفضل رجال الدولة)^(١)

ويتساءل المؤرخون العثمانيون، أليس هذا خرقاً للتقاليد العثمانية الملكية؟ ومن أفتى للسلطان سليمان بهذا، وسكان تلك الولايات يسبحون باسمه ليل نهار، ويتضرعون لله لحفظ ملكه ثلاثة أيام في الأسبوع، المسلمون يوم الجمعة، والمسيحيون يوم الأحد، واليهود يوم السبت. وبذلك ومن دون علم من أصحاب الديانات الثلاث، عبدوا السلاطين، إن ما أورده البحث من أدلة على تسيب السلطان سليمان ومن بعده ابنه الذي قضى شبابه مخموراً وقتل أخاه من أبيه وأمه على ملك، ولم يوقع أكثر من عدة فرمانات يوم جاءه الصدر الأعظم لتوقيعه منه، يوم صمم على فتح قبرص بتشجيع من اليهودي يوسف مندا

(١) مؤنس، الجارية روكسلانا تتزوج السلطان.....، ص ٤٣.

نانسي، لأنه وعده أن يعينه ملكاً على قبرص بعد احتلالها، ولم يكن مراد الثالث بأفضل منهما، ماتت والدته نوربانو مسمومة، ولم يسمع بموتها إلا في أثناء دفنها أهذه مهام السراي الهمايوني إدارياً.

وبتعبير أكثر وضوحاً لم يُعد للسراي الهمايوني سلاطين قادرين على إدارة دولة مترامية الأطراف لأن عظمائها بيد الجواري، فقد أديرت الدولة العثمانية في فترة الدراسة من قبل أربع هوانم لفترة زمنية بلغت ثمانين عام، علماً أنها فترة السلاطين العظام ولديهم شخصيات بارزة. واقع الأمر: لقد جسد السلطان سليمان القانوني وخلفاؤه الفساد، وأرغموا خلفاءهم وأحفادهم على الاقتداء بهم، ومنذ منتصف القرن السادس عشر، لم تسمع ولاية الولايات صوتاً لسلاطين القرنين السابع عشر والثامن عشر^(١).

أ-الديوان الهمايوني:

يُعد الديوان الهمايوني أعظم وأرقى مؤسسة حكومية في الدولة العثمانية، ووظيفته مناقشة شؤون الدولة السياسية والإدارية والشرعية والمالية، فضلاً عن ذلك فإن الديوان الهمايوني من أعظم الأجهزة الإدارية المركزية التي حققت نجاحات باهرة في مختلف المجالات ويتبع إليه الأقسام والإدارات بشكل مباشر أو غير مباشر^(٢).

يعود تشكيل الديوان الهمايوني إلى الغازي أورخان، وقد تطور بشكل أكثر فاعلية في عهد السلطان محمد الفاتح. كُلِّفَ ثلاثون موظفاً للعمل بالديوان، ونظراً للمهام الملقاة عليه، بدأ يتضاعف عددهم عاماً بعد عام ولاسيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إبان ضعف الدولة العثمانية وترهلها، ليصل إلى أكثر من مائة موظف، وإذا كان السلاطين الأوائل قد وجهوا أمرهم إلى الديوان، فمن خلفهم أهمله. جسد الديوان البيروقراطية في الدولة العثمانية، وتحول من قمة المسؤولية التي كانت مناطة به إلى مؤسسة خدمية بامتياز، كما ارتبطت مكانة الديوان بقوة السلطان الحاكم، لأن تردد السلطان إلى غرفة العرض لسماع شكاوى بضرورة الاجتماع يومياً بسبب المشكلات التي كانت تواجهها الدولة آنذاك، فإن سلاطين القرنين السابع عشر والثامن عشر حددوا اجتماعاته مرة في الأسبوع، وقد تزامن

(١) مانسيل، فيليب، القسطنطينية المدنية التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت،

١٤٥٣م-١٩٢٤م، ص ٢٣-٢٨

(٢) طورخان، أوغلو محمد، مؤسسة الديوان الهمايوني، ترجمة عبد اللطيف الحارس، استانبول، ١٩٧٨م، ص ٢٣٤.

إهمال الديوان مع إهمال السلاطين لمهامهم. لكن الواقع الحقيقي، فإن بعض السلاطين، لم يكن بمقدورهم استلام إدارة الدولة، لأنهم أدركوا أن إدارة الديوان الهمايوني أمر في غاية الأهمية بالنسبة لرعيته كما حدد قانون ناميه عدد الأعضاء وطريقة دخولهم وجلسهم داخل الديوان، وقد شهد الديوان ازدهاراً كبيراً في عهد بايزيد الثاني، لأنه كان يحضر إلى الديوان لسماع شكاوى الناس، كذلك فقد حدد أعضاء الديوان بثلاثة وزراء، وكان قاض العسكر والدفتر دار يتشاركان في حضور جلسات اجتماعه، نص قانون ناميه على ضرورة حضور السلطان اجتماع الديوان لإنصاف المظلومين ومحاسبة المسئولين من رجال الدولة، كما كلف الديوان بمهمة الرقابة على أحكام القضاء وكأنه آنذاك محكمة نقض، كما نظم قانون ناميه تشكيل الديوان وكيفية دخولهم وتناولهم الطعام ومثولهم لدى السلطان، كما حدد عدد الموظفين المساعدين ولاسيما المكلفين بأمور الكتابة والتحرير^(١).

إن تطور الديوان بالنسبة لسلاطين القرن السادس عشر والسابع عشر بزيادة عدد الوزراء، وضرورة إشراك قاضي العسكر (قاضي الروميلي وقاضي الأناضول) غير أن هذه الزيادة التي فرضت على الديوان، أسهمت إلى حد كبير في ترهله وحولته إلى مؤسسة بيروقراطية كسولة، لقد حدد قانون ناميه اجتماعات الديوان عقب صلاة الصبح من كل يوم عدا يومي الخميس والجمعة حيث يؤدي الوزراء صلاة الصبح في جامع آيا صوفيا، وعقبها يفتح باب همايون بأمر من آغا الباب، وحالما يدخل الوزراء يجتمعون في مبنى يسمى القبة انتظاراً لقدم الصدر الأعظم الذي حل محل السلطان بعد عام ١٥٣٥م، الذي استجاب لرغبة زوجته اليهودية روكسلانة حيث نصحته بالذهاب لقطف الورود، ولم يكن أمامه من وسيلة سوى الاستجابة، فاستدعى رستم باشا وخوله قيادة الجيش وحمله الختم الهمايوني.

كان أعضاء الديوان يتناولون مختلف القضايا والمشكلات التي تواجه الدولة، كما كانوا يتدارسون وضع الولايات كون الديوان الهمايوني يمتلك أعلى صلاحيات في الدولة، فضلاً عن أنه يعدّ الجهاز الحيوي الأكثر نشاطاً فيها، وإذا كان ضعف السلاطين قد حدّ من اجتماعاته اليومية، فهو يجتمع لدى حدوث أي حدث مهم أو لقدم سفير دولة أوروبية أو عزل سلطان أو وفاته^(٢).

(١) أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج ١، ص ١٧١.

(٢) أوزون، اسماعيل حقي، التاريخ العثماني، دار المعرفة التركية، اسطنبول، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٣٦٧.

يناقش الديوان الهمايوني في اجتماعاته المسائل الخارجية، ويدرس التقارير المقدمة من الولايات، ولاسيما تقارير الولايات الحدودية، وكانت ولايات شمال أفريقيا، تحظى بالقسم الأكبر من جلسات الديوان لكثرة مشكلاتها الداخلية والخارجية، وقيام بحارتها بضرب السفن التي ترتبط مع الدولة العثمانية بعلاقات واتفاقيات، عندها يضطر الديوان لمخاطبة تلك المناطق، علماً بأنهم كانوا يتجاهلون توجيهات الديوان وحتى الفرمانات السلطانية وبما أن ضعف السلاطين يتزايد يوماً بعد يوم، وهوانهم تدير مملكتهم بحسب أهوائهم، فإن الخدم والحشم، بدؤوا ينظرون إلى السلطان الحاكم نظرة عطف وشفقة، حيث كان يقضي يومه ما بين فراشه والتجول حول المحظيات ولاسيما إذا كانت السلطانة الوالدة قد توفيت، أو أسندت إدارة الحرمك لكتخدا السراي فالسلطان الضعيف والخجول يغدو ألعوبة بأيدي المحظيات اللواتي يسعين لابتزاز السلطان، لأنه ليس له موجه يوجهه ويحذره من خداعهن له، والمحظيات يعلمن أن السلطان الحاكم لديه أموال أكثر من ميزانية دولته^(١).

-أيام انعقاد الديوان:

ذكرنا سابقاً أهمية الديوان الهمايوني التي بدأت تتضاءل وتفقد قراراته وتوصياته الأهمية، لأن الباب العالي أو ما يسمى باب الباشا (الصدر الأعظم) غدا صاحب الكلمة الأولى في الدولة، لأن السلاطين غرقوا الواحد تلو الآخر في مستنقع الحرمك، لكن على الرغم من فقدانه الأهمية، ظل قائماً وبشكل رمزي، إلا أنه شارك في إصدار التقويمات السنوية (السالنامات) بشكل فعال.

لم يتمكن الديوان الهمايوني من المحافظة على نظامه الذي أقره له قانون نامه من حيث الاجتماع يومياً بعد صلاة الصبح، لأن مكانته وقراراته كانت وفقاً على قوة السلطان الحاكم ومدى قدرته على ضبط شؤون الدولة.

صحيح أن السلطان محمد الفاتح ١٤٥١-١٤٨١م أقر ترأس الصدر الأعظم لجلسات الديوان، لكن بحضور السلطان من خلف ستارة لمتابعة جلساته وكيفية إدارته للدولة، ولكن في مرحلة الضعف والترهل بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين غاب السلاطين عن الحضور ولهذا فسدت كل الأنظمة السابقة فعلياً، لكن نظرياً ظل الديوان يجتمع في الأسبوع مرة واحدة لتدارس قضايا جانبية،

(١) Mahmah Raci: kubbe vezirlek devri. Ankara.1989.PP356

علماً أن سلاطين القرن السابع عشر حددوا اجتماعاتهم في الديوان الهمايوني، مرتين في الأسبوع، ويوم واحد للعرض على السلطان.

تولى الصدور العظام مسألة إدارة الديوان الهمايوني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ثم تضاءلت أهمية الديوان الهمايوني، واقتصرت اجتماعاته الشكلية على بعض المراسيم مثل مراسم توزيع العلوفات (الرواتب) على جنود الانكشارية، لدرجة أنه عُرف فيما بعد بديوان العلوفات وأوكل اليه مهمة استقبال سفراء الدول الأجنبية، وقد حاول بعض سلاطين القرن الثامن عشر إحياء الديوان، لكنهم عجزوا، لأن مقدرات الأمور كلها غدت بيد الصدور العظام الذين عُرف مقرهم بالبواب العالي.

- مكان انعقاد الديوان:

اختلفت الدراسات حول مكان انعقاده، وغالباً كان الديوان الهمايوني يجتمع في سراي بورصة أو أدرنه بالقرب من قصر السلطان والبعض يذكر أنه يجتمع في ديوان خانه، هذا قبل فتح القسطنطينية، لكن بعد فتحها، كان يجتمع في غرفة مجاورة للغرفة الكبيرة في السراي، وكانت تسمى (قبة التي) (أي القبة السادسة) أي تحت القبة^(١)

- أعضاء الديوان:

تفاوت أعضاء الديوان من ٣-١٢ عضواً معظمهم من وزراء القبة، وقد حملهم السلاطين مسؤولية ضبط شؤون الدولة كونهم يمثلون السلطة العليا في المسؤولية مع السلطان بصورة جماعية، عندما تعرض أية مسألة على الديوان، يضطر السلطان لحلها ويُرغم على الاستجابة لرأيهم^(٢).

ويذكر المؤرخ قفلجملي أن لأعضاء الديوان حق العرض على السلطان، لكن الشخص الذي يعدّ عقل السلطان (آغا الباب والالحدار) بإمكانهما حسم الأمر مع السلطان أكثر من الديوان، ومن أبرز أعضاء الديوان عدا الوزراء خمسة:

(١) أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج ١، ص ١٧٢.

(٢) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٢٥١.

١-قضاة العسكر، قاضي الأناضول وقاضي الروميللي.

٢-قاضي دار السلطنة.

٣-من يحمل رتبة وزير وبيلربي من النشانية اي (رماة السهام).

٤-العاملون كدفتردار إذا كانوا برتبة نيشانجي أي رتبة وزير.

٥-النشانيون المكلفون بحماية السلطان ورعايته.

تتركز أبرز الأعمال التي ينجزها الديوان الهمايوني على ثلاثة أمور:

المطالعة: تتجلى المطالعة بإبداء رأي كل من الوزير وقاضي العسكر والدفتر دار، حول القضايا الاقتصادية من قبل الدفتر دار وبعد طرحهم لآرائهم تغدو الجلسة جاهزة لمناقشة تلك الأمور الحساسة.

يعطي الأمر بالحقوق أو الامتيازات أو البراءة أو الوظيفة أو السلطة.

يصدر الفرمان المتضمن الأوامر والنواهي.

إن الجلوس في صدر الديوان الهمايوني هو من حق الوزراء وقضاة العسكر والنيشانجي، لأنهم أصحاب السلطة الرئيسة في الدولة، وقد أجاز قانون نامه السماح لبك البكوات (المعزول) والبيك أو الوالي المعزول أيضاً بالجلوس في الديوان كمستمعين، وهنا يسأل حكمت قفلجملي مَنْ من أفراد الشعب يستطيع الاقتراب من الديوان الهمايوني لعرض ظلامته، بعدما أصبح عدد حجاب الديوان الهمايوني ٢٣٤٤ شخصاً^(١). هذا التزايد المكثف للخصيان من سود وبيض حال دون إيصال المظالم إلى الديوان الهمايوني، وما يمكن قوله بشأن المظالم واستناداً إلى الوثائق لقد ابتعد السلاطين عن رعيّتهم، وانصرفوا إلى اللهو والمجون^(٢).

(١) قفلجملي، التاريخ العثماني، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٢٧٨-٤٥٧.

ثالثاً-الحرم الهمايوني:

يُعد المجتمع العثماني من المجتمعات المركّبة التي لا يمكن فهمها البتة من خلال أنظمة الحكم والإدارة أو من خلال تاريخها العسكري أو الاقتصادي، فضلاً عن الحياة اليومية بأفراحها وأتراحها، مضافاً إلى هذا وذاك تراكم الأفكار السائدة حول الموت والحياة وغالباً كل الأمم والأديان يعترّيها أفكار ربما تكون سوداوية أكثر، كالعلاقات التي تحكم الرجال والنساء، وشكل الارتباطات العائلية، وهوية الفرد وموقعه وما يحدد مكانته ومرتبته في السلم الاجتماعي، وتباين أشكال المجموعات الاجتماعية التي كان ينتمي إليها الفرد، وجماعة النخبة وعلاقتها بالقوى الاجتماعية الأخرى... إلخ.^(١)

إن ما يُعرف بالحرمك، عالم النساء المجهول والمعقد، موضوع شغل السلطة الحاكمة، وتخوف الباحثون من دراسته لقلة معلوماته من جهة، ولأن المرأة في الحرمك، ظلت رهينة دائرة الحرم، وربما عاشت أشهراً وربما عاماً أو سنتين وراء الأسوار العالية في سراي «طوب قابي» معزولة عن العالم الخارجي، ولم تحظ بالسلطان لتصبح محظية من جملة محظياته في حال لم تزرّق بغلام من صلب السلطان، يدفعها لأن تكون السلطانة الوالدة^(٢).

علمياً: الحرمك والسلامك مصطلحان تاريخيان، ارتبطا بالمنظومة الاجتماعية الشرقية الإسلامية، وعكسا مفهوم الخصوصية، وطبيعة التواصل الاجتماعي بأشكاله المتعددة. ولفظ «الحريم» مشتق من كلمة الحَرَم، وحَرَم الرجل ما يُقاتل عنه ويحميه. والحُرمة ما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق. ولخصوصية وضع المرأة في بيتها أصبح المصطلح علماً عليها، وفي الوقت نفسه صار يُطلق على الجزء المخصص لمعيشتها وتحركاتها داخل محيط البيت، **إن اللفظة المستخدمة ذات مغزيتين:** فاللفظة العربية حريم ولفظة حرمك، كلتاها تشيران ضمناً إلى منطقة محظورة، ومقدسة، في حين أن اللفظة الفارسية أندرون تعني ببساطة الجزء الداخلي^(٣).

(١) رفيق، عثمانلي تاريخي، ص ٣٤٧.

(٢) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٤٥٨.

(٣) أورخان، جنكيز، طوب قابي سراي، نبوتجي باشي، برلين، ١٨٧٦م، ص ٥٦.

أصبح مصطلح الحرمك أو الحرم الهمايوني معتمدا لدى الخاصة والعامة، علماً أن المكان الذي ضمّ دائرة الحريم السلطاني، يقع في القسم الخلفي من الديوان الهمايوني، في سراي طوب قابي (مقر سكن السلاطين العثمانيين). والقصر الذي بناه السلطان محمد الفاتح يطل على القرن الذهبي، والبعض شبهه بالحارس الساهر على أمن المضائق، ولسوء طالع الخصيان (سود-بيض) والمحظيات، غدت المضائق مقبرة لهم، يُرمون بها في غفلة من أعين أهالي استانبول، ولتخفيف الهموم وإزالتها عن سلطان أنهكته مشاغل دولته ورعيته، ولتعلو البسمة وجوه حريمه، زينوا داخل القصر الحدائق الواسعة المزينة بكل أنواع الزهور ونافورات المياه لنزهة الحريم. ويتكون قسم الحريم من عدة أجنحة، كل جناح يُسمى دائرة، ويغلق على الأجنحة كلها باب رئيس يتولى حراسته من الخارج الأغوات، ومن الداخل حراس أقوياء^(١).

أما لفظة **سلامك** في اللغة التركية فتعني حرفياً، مكان التحية والتسليم وأطلق على قاعات معدة للاستقبال الرسمي، التي تُقام فيها المناسبات، كأعياد ميلاد السلطان أو إقامة احتفال بمناسبة إجراء عملية ختان لولي عهد السلطان أو لاستقبال الوفود الدبلوماسية من المكان، واللفظة تستخدم لوصف طقوس حضور السلطان صلاة الجمعة، وبصفة عامة صار الاصطلاح مقروناً بالمكان المخصص لاستضافة الرجال الغرباء، أو لحضور أكبر أعضاء الأسرة سناً، لإقامة حفل استقبال عائلي له في غرفة السلامك التي كانت في أغلب المنازل محاطة بعدد من الغرف المستقلة، وكان الرجال يجتمعون في الجناح الخاص بهم، وكذلك النساء^(٢).

لم يُعتمد مصطلح (الحرمك أو السلامك) في المدونات العربية قبل القرن التاسع عشر، ففي مصر مثلاً، كانت مصطلحات مثل (باب الحريم) أو (مساكن الحريم) هي الشائعة في الاستخدام، في القرن الـ ١٨ م، اعتُمدت فيما يخص قصور الأمراء وبيوت الطبقة المتوسطة، وكانت عبارة (الحريم العالي) هي المستخدمة لوصف المكان المخصص لسكن حريم محمد علي باشا وفيما بعد دأب خلفاؤه على احتضان محظيات من باب التقليد، فأى ملك أو سلطان ليس في قصره محظيات مسألة معيبة.

(١) مارك، بيير، التغيير الاجتماعي في استانبول العثمانية، استانبول، ٢٠٠٤م، ص ٤٢٦.

(٢) Mustafa . cankizoglu> Saray bahcese,Ankara. 1979>p245

إن مسألة فصل النساء كانت واحدة من التقاليد الموروثة القديمة، واحترم العثمانيون هذا التقليد، ولم يكن يسمح لأية سيدة، ابتداءً من زوجات السلطان وحتى الخاديات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة حين كان السلطان يصطحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية الأخرى، وفي الواقع لم يكن يخرجن خارج نطاق الحريم، فقد كان عليهن أن يحصلن على إذن خاص من السلطان، حتى ولو كان الأمر خاصاً بالنزهة في حدائق القصر، وفي مثل هذه النزهات كانت تتخذ احتياطات شديدة لمنع أي شخص غير مرغوب فيه من النظر إليهن، وكان سرايا الحريم يحاط بأسوار عالية، وجدران سمكية، تحسباً لتطلع أحد من الخارج إلى ما يدور داخله، هذا الحرص حول الحرم السلطاني إلى عالم مستقل بذاته خبأ أسرار داخله، وظل للسامع به حلم يراوده لمعرفة أسرارهِ^(١).

ونقلاً عن وثائق، أفادت بأن أحد تجار البندقية، أمسك منظاراً وحاول أن ينظر من فوق سطح منزله إلى أجنحة الحريم السلطاني، وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته في كشف خبايا الحريم، فأمر السلطان بشنقه فوراً، وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجماناً للسفير الفرنسي في استانبول، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأسرعت بشنقه، قبل أن يتدخل السفير الفرنسي ويطلب التماساً بالعفو عنه^(٢).

تخضع علاقة السلطان بنسائه الى قواعد وآداب لا يمكن التهاون فيها: فعندما يتطلب الأمر ذهاب إحداهن إلى جناح السلطان كان يتم ذلك عن طريق واحدة من المسؤولات عن جناحه، فتقدم لها هدية السلطان، ثم تدعوها إلى جناحه وتقدمها إليه. ولم يكن للزوجة أن تجلس في حضور السلطان ما لم يأذن لها، وتتحدث معه دائماً بشكل رسمي، وتتحرك بشكل رسمي، ثم يتناول السلطان طعامه على مائدة خاصة، بينما تأكل هي على مائدة أخرى منفصلة، فمائدة السلطان لا يشاركه الطعام عليها سوى بناته الأميرات، استناداً إلى قانون نامه الذي أقره الفاتح^(٣).

(١) ليزلي، بيرس، حريم الإمبراطورية المرأة والسيادة في الدولة العثمانية، اكس فلور، ط٥، جامعة أكسفورد، ١٩٩٧، ص ٢٣٩.

(٢) ألفريد، أندريا، النساء والشرعية الإسلامية في الدولة العثمانية، ط٥، بوسطن، ١٩٨٩م، ص ١٥٩.

(٣) Eviya . celebi: Seyahat name, Ankara. 1324.pp267

وتشير ماجدة مخلوف في دراستها للآداب المتبعة داخل الحريم السلطاني إلى أنه كان من المحظور على الجواري التثاؤب أو التمخط على الملأ أو السير حافيات الأقدام، وارتداء ملابس غير مهندمة أو غير متناسقة أو غير نظيفة. ويجب عليهن تقليم الأظافر في مكان منعزل والاستحمام مرة كل أسبوع^(١)، وعند مرور واحدة من الجواري بمختلف درجاتهن من حجرة إلى أخرى أن تقول: (دستور) وهي تعني طلب الإذن بالمرور. وكان من المحظور أيضاً، على كل من في الحرم، أن يتكلم بصوت مرتفع، وتقوم ممثلة النائبات بمراقبة هذه السلوكيات بكل دقة^(٢).

وكان يتم اختيار النساء بعناية للبلاط من أسرى الحروب أو من أسواق العبيد، إذ إن نظام الدفشمة لم يكن يطبق على الإناث. وهكذا في عام ١٤٧٥م كانت هناك أربعمئة جارية في بلاط طوب قابي، ومئتان وخمسون جارية في البلاط القديم، وكانت البنات كالغلمان يقضين فترة طويلة من التعليم والتدريب، وقبل كل شيء يتعلمن مبادئ الإسلام، ثم يكتسبن بعض المهارات: كالخياطة والتطريز، والرقص، والغناء، والعزف على الآلات الموسيقية، وسرد الحكايات، وذلك حسب قدراتهن^(٣).

ومع الزمن كانت الواحدة منهن ترتقي وفق نظام الدرجات التراتبية في نظام طوائف الحرف إذ إن التقليد العثماني كان يقضي بتعلم أية مهارة أو حرفة بواسطة نظام المتمهّن-المعلم، وهكذا خضعت الجواري لهذا النظام^(٤)، فترتقي الواحدة منهن من (جارية) إلى (شاگرد) ثم إلى (كديكلي) وأخيراً إلى (أوسطة) والغلمان يرتقون في الخدمة أيضاً، ويصلون إلى الخدمة الخاصة للسلطان، فقد كانت الأسطاوات الجواري يُنتخب من بين الأخريات لتقديم خدمات خاصة للسلطان.

ولما كان أغلب الجواري اللاتي يلتحقن بالحريم، ينحدرن من أصول غير مسلمة، فقد كان يتم اختيار اسم جديد للجارية بدلا من اسمها المسيحي أو اليهودي، وعادة يكون اسمها فارسياً يحمل معني

(١) مخلوف، ماجدة، آداب السراي الهمايوني ونظامه، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٣. (بحسب نظام السراي

الهمايوني، بعض المسيحيات اعتنقن الإسلام بالظاهر وبقين على مسيحتهن).

(٢) باشا، بجوى، قبب الوزراء ومراتبهم، مطبعة الرجاء، إزمير، ١٩٧٦م، ص٢٥٦.

(٣) باشا، عبد الرحمن، نظام السراي الهمايوني، استنبول، ١٢٨٨هـ، ص٥٦.

(٤) الادريسي، وفاء، الجواري والغلمان مؤمنون بلا حدود، تونس، ٢٠١٦، ص١٥٩.

جميعاً مثل (ذات الدلال)، ويقوم السلطان بنفسه باختيار هذا الاسم الجديد، ولكي يُعرف الاسم الجديد في بادئ الأمر، كان يُكتب في ورقة تثبت على ملابس الجارية في مكان يسهل رؤيته^(١).

وكان يطلق على النساء اللاتي يُخْتَرْنَ لمخدع السلطان (خاصكي) والخاصكي التي تلد ابناً للسلطان تتمتع بامتياز خاص، فتذهب بمراسيم خاصة لتُقبَل يد السلطان وهي ترتدي التاج وفرو السمور، وكان يُفرد لها جناح خاص في البلاط، أما إذا أنجبت بنتاً يطلق عليها، (خاصكي خاتون) ومعناها والدة ابنة السلطان، تُرسل إلى قصر الدموع ولم تقدنا المصادر بمعلومات تُذكر أما المحظية الأولى التي تلد ابناً للسلطان فإنها تبقى الأولى على المحظيات كافة، وتُلقب (باش قادين) أي رئيسة النساء. وكانت كل جارية في الحرملك تتجاوز الأصول المعهودة أو التراتبية الموجودة تتعرض لعقاب، بادئ الأمر تُعطى تنبيهاً وإذا كررت الخطأ، تنقل إلى أحد القصور، أما الجارية التي تحظى بجمال فائق وملفت للنظر، تجذب انتباه السلطان تتجاوز حقوق الأسطاوات القدامى، لدرجة تتجاوز الحد من نفوذ والدة السلطان كما حدث مع عدد من المحظيات مثل صافية الإيطالية وقبلها بارليتينا البندقية.

إذاً كان السلاطين العثمانيون يختارون لجواربهم أسماء فارسية، في حين كانوا لا يختارون لبناتهم سوى الأسماء العربية. وعندما يتزوج السلطان بواحدة من الجواري، كان كثيراً ما يُضاف إلى اسمها الفارسي الذي كانت تُدعى به وهي جارية، اسماً آخر عربياً رمزاً للشرف الذي حظيت به بزواجها من السلطان.

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تتمتع بها القادينات (زوجات السلاطين)، فإن مركزهن لم يكن مستقراً بصفة عامة، فقد يحدث أن يسأم السلطان من إحدى القادينات لسبب من الأسباب، ولا معقّب لرأيه، فينفصل عنها آمراً بأن تغادر السراي الجديدة إلى القصر القديم، الذي تأوي إليه نساء وجواري السلاطين المتوفين، وفي هذه الحال يملأ مكانها الشاغر في الحريم السلطاني بجارية يعتقها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادين (سيده بالفصحى، امرأة بالعامية).

مما لا شك فيه، أن النساء في الحرمل مجرد أدوات تتحرك بالإرادة الهمايونية، وهذا ما فرض عليهن العزلة عن العالم الخارجي، ولا يعلم ما يدور حولهن ولا حتى ما بعد سور القصر، وأنهن لا حول لهن

(١) بك، فيريدون، دماء وضحايا الحرملك، استانبول، ١٢٩٩هـ، ص ٢٥٤-٢٥٩.

ولا قوة، ويخضعن لنظام صارم ودقيق، يحدد لهنّ وظيفة محددة، لا تعدو سوى كونها سبباً في إدخال السرور وتوفير ما عرف بـ (مباهج الحريم)^(١)، وبتعبير أكثر وضوحاً، هنّ في القصور العثمانية، كبرت تلك القصور أو صغرت، مجرد سلعة للمتعة والخدمة، ومع الأسف من ينجين من الموت شقناً أو إعداماً أو رمياً في البحر، قلة قليلة، وكم من رأس يحمل وجهاً جميلاً فصل عن الجسد لأنفه الأسباب، ولتأكيد ذلك نقدم من قصة الضيف الفرنسي الذي زار رجل الإصلاح الأول بالدولة العثمانية محمود الثاني (جاءه ابن خالته (شقيقة والدته الفرنسية))، فاستقبله أحسن الاستقبال، وخصص له جناحاً، وبعد مدة، طلب الفرنسي من السلطان محمود أن يرى أجمل واحدة في قصره ، فاستهجن السلطان محمود الأمر، واحتار في أمره ، فإن أزعله ستغضب والدته ايميه منه، وإن لبي طلبه فهو كافر زنديق، لا يجوز أن يرى نساء المسلمين، فاستشار مفتيه، فأفتى له بقطع رأس أجمل فتاة في القصر ووضعها على طبق من الفضة مغطى، وتقديمه للفرنسي، فينجو بذلك من عذاب ربه، ففعلها (السلطان)، ويشرب السلطان الخمر ويعاشر النساء من دون عقد شرعي، ويبيد الانكشارية فله الحق، فهو أمير المؤمنين وحامي ديار المسلمين^(٢).

ثمة حقائق تقيم تصوراً مغايراً لذلك، فكما كان النساء في الحرملك جواري بالفعل، مندمجات داخل نظام صارم ودقيق، إلا أنه كان بإمكانهن أن يحتفظن بقدر من القوة الفاعلة التي تحفظ مكانتهن، وتضمن لهن مصالحهن الخاصة ومصالح أبنائهن، بما في ذلك ما كان له علاقة مباشرة بمجال السلطة وعالم السياسة الإمبراطوري، والذي كان ولا شك أخطر مجال يمكن أن يظهر فيه تأثير لحريم السلطان العثماني.

وهناك روايات عديدة عن أمهات السلاطين اللاتي اكتسبن نفوذاً كبيراً في القصر السلطاني، سواء بسبب صغر أعمار أبنائهن السلاطين أو لضعف شخصيات البعض منهم. وبلغ الأمر بهؤلاء الأمهات إلى حد إقصاء أبنائهن السلاطين عن ممارسة معظم اختصاصاتهم، بعد أن هيأن لهم الجو للانغماس في مباهج الحريم. (واحدى القادينات من ذوات الشخصية القوية وتدعى «صفية»، حينما

(١) بك، عطا، تاريخ أندرون، باب عالي مطبوعه سي، إستانبول، ١٢٩٤هـ، ج ١، ص ٢٥٤-٣٩٨.

(٢) شرف، عبد الرحمن، باب سعادات، عبارة ذهبية اللون (السلطان حامي المسلمين وديارهم)، إستانبول ١٢٨٧هـ،

مات زوجها السلطان مراد الثالث أخفت خبر وفاته، وأخبرت فقط ابنها محمداً، الذي كان حاكماً على منيسة، ليأتي سريعاً إلى استانبول، وما إن دخل البلاط حتى كانت طلقات المدفعية في المدينة تعلن عن وصول سلطان جديد إلى العرش. وأمرت بأن يوزع في الجوامع أمر ينص على ذكر اسم السلطان محمد في الخطبة، وتمت دعوة أعيان الدولة إلى البلاط، ليُعبّروا بعد الصلاة عن إخلاصهم للسلطان في جو مهيب، وبعد هذا خلع السلطان زي الحداد، ثم شارك في مراسيم تجهيز وتشيع والده. بينما تم حجب باقي الإخوة وأمهاتهم (زوجات السلطان المتوفي)، ونقلوا إلى السراي القديمة، ووفقاً لقوة التقاليد المتبعة في الحرملك تصبح والددة السلطان بمثابة «سيدة القصر الأولى» التي يمكن لها أن تتدخل في تصريف بعض شؤون الدولة بصورة متكررة. كما كان شكل تدخل الحريم، بدرجات متفاوتة، في شؤون الدولة، ظاهرة فجّة ومتكررة، حتى بات «الهرملك بمثابة بلاط داخل البلاط»^(١).

١- المحظيات ومراتبهن:

أ- دائرة السلطنة الوالدة:

عهد السلطان الحاكم إلى والدته الإشراف على المحظيات المستوردات من دول أوروبية، وانتاء أفضلهن لمرحلة الإقبال ثم قادين أولى (المرأة الأولى) وبعد السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م أول من أطلق على والدته المهدية العليا، وهو تعبير استخدمه ملوك وسلطين بعض الدول الشرقية. ويذكر بيهم في مؤلفه أن السلطان مراد الثالث أطلق على والدته نور بانو اليهودية هذا اللقب تعويضاً لأهانتها من قبل زوجته الإيطالية صافية، ولأن عمال السراي كانوا غير مرتاحين لها، لأن صافية زوجة مراد حضتْهم على كراهيتها.

ب- دائرة خزنة دار أوسطه:

تعرف هذه الدائرة بدائرة هنكار قلفه سي وهي دائرة خاصة بالسلطان الحاكم لا يدخلها إلا النساء، وخدمهم من الخصيان (الطواشية) سود وبيض، مهمة هذه الدائرة الاهتمام بزوجات السلطان الأربع، حيث يخصص لكل زوجة من زوجاته الأربعة دائرة خاصة بها.

^(١)Cengiz orhan KSaray Top Kapi. Tercumanlari Hikayati K Istanbul 1987PP56

ج- الدائرة الأولى:

لزوجته التي أنجبت له غلاماً ذكراً، وغالباً ما يكون ولياً للعهد، إذا نجا من التآمر من زوجات والده اللواتي أنجبن ذكوراً.

د - دوائر باش إقبال:

ويخصص لكل محظية من محظيات السلطان الثلاث دائرة خاصة بها، ويحق لها الاحتفاظ بدائرتها إذا هجرها السلطان وتلقب (خصك) أي خاص قديم، ويحق للسلطان أن يرفع من سراريه من يشاء إلى مرتبة القادينات.

هـ - دوائر قيزيده :

وهي دوائر مخصصة للفتيات اللواتي ينلن إعجاب السلطان.

و - دوائر (قادين أفندي):

تخصص هذه الدوائر إلى أمهات بعض أبناء السلطان الحاكم وبناته.

ز- دوائر (السلطانيات):

وهذه خاصة بالأميرات اللواتي لم يتزوجن، أو العوانس من الأسرة الحاكمة، وحينما تولى السلطان سليمان القانوني العرش، عمد الصدر الأعظم رستم باشا إلى طردهن من دوائرهن وذلك بتوجيه من زوجته مهرماه ابنة السلطان سليمان، ولم تذكر لنا المصادر، ماذا حل بالعوانس من السلالة العثمانية، ويذكر أن هؤلاء الفتيات أرسلن إلى قصور المدن الأخرى، لكي تبقى عامرة، فضلاً عن ذلك، ظل السلاطين يترددون إلى تلك القصور، ولاسيما سلاطين القرنين السابع عشر والثامن عشر.^(١)

(١) عامر، محمود، جوراي القصور العثمانية، ص ٦٤.

ح-زوجات السلاطين:

لقد دأب السلاطين العثمانيون على تزويج أبنائهم ذكوراً أو إناثاً من ولاية الروملي، وكان يطلق على الأبناء (بي *Bey*)، أما الزوجات فقد طرأت على النهج العثماني في الزواج متغيرات جديدة، ففي بادئ الأمر كان زواجا قائماً على المصالح وخاصة خلال المراحل الأولى، وبعد معركة أوصو (قره صو) التي قتل فيها مراد الأول عام ١٣٨٩م، ومن ثم معركة أنقرة التي أسر فيها يلدرم بايزيد، أُلغى العثمانيون عن زواج المصالح، لأنهم تحسسوا القوة بأنفسهم.

ط-الأميرات بنات السلاطين:

أدت الأميرة التركية سواء أكانت بنت قائد القبيلة أم من أفرادها دوراً مهماً وبارزاً في حماس شبان القبيلة لمقارعة أعدائهم إضافة إلى دورها الخدمي، وظلت تؤدي الدور نفسه حتى عام ١٣٨٩م أي زمن ولاية يلدرم بايزيد للعرش، ومن ثم اختفت من على الساحة القتالية أو غيرها، وبرز دور ابنة السلطان الحاكم منذ عهد محمد الفاتح ١٤٥١-١٤٨١م، حيث أقر قانونه ضرورة إضفاء ألقاب أبرزها لقب السلطنة، ويأتي هذا اللقب بعد اسمها، ثم تبدل مصطلح السلطنة إلى لقب الثالثة - الرابعة أي لكثرتهن ولتشابه أسمائهن، فاعتمدت الأرقام بدلاً من الألقاب^(١).

٢-أبرز محظيات القرن السادس عشر:

إن معالجة هوانم سلاطين القرن السادس عشر، يحمل في طياته مضامين يلفها غموض مفتعل، وليس صحيحاً أنهم هوانم فالهانم زوجة شرعية لها حقوق وعليها واجبات، أما المحظية فهي نزوة عابرة وليس لها حقوق، تقتل وتُعدم دون مساءلة القاتل، غير أنه قد يلتقي الطرفان وقد لا يلتقيان في قصور الملوك والسلاطين، (اليوم محظية وغداً هانم)، في حين أن الهانم زوجة لا تسمح لامرأة ثانية مشاركتها في زوجها، ومن الثابت أن المرأة لا تقبل شريكة لها في الزواج، باستثناء حالات خارجة عن قدرتها، فالفقراء لعبارة روكسلانة للسلطان سليمان زوجها، و قد أنجبت له خمسة أولاد، يشك في عدم صحة كلامها ففي عام ١٥٣٥ الشهر الرابع بعدما عاد من العراق منتصراً وبعدما تخلصت من

(١) عامر، محمود، جوارى القصور العثمانية، ص ٦٥.

الصدر الأعظم إبراهيم باشا، قالت (يا مولاي ليس ملوك أوربة بمستواك، فهم لا يذهبون إلى الحروب، بل يرسلون نوابهم، فملكك واسع وجيشك مشهود له بالشجاعة وهذا بفضل عنايتك به، يا مولاي، أرسل نوابك يقودون جيوشك العامرة، واذهب إلى بستان الورود، ففيه ورود فواحة تريح الفؤاد من تعب النهار وقلق الليل).^(١)

ومن غريب الصدف أن نوريانو زوج سليم الثاني، قالت لزوجها ما قالتها روكسلانة للسلطان سليمان، وكذلك رددت صافية كلاماً مشابهاً لما قالت نوريانو، هل عرف التاريخ امرأة تقول لزوجها، اذهب وعاشر فلانة؟ أهؤلاء جنن للمتعة أو للزواج أو للمال؟ وكل منهن آية جمال متكاملة، لا عيب فيها سوى أن حلاوتهن تسلب الفؤاد، ألم يأتين لهدم الدولة العثمانية؟ ما الذي تشكوه صافية من أسرة بافو؟ مال، جاه، ألف إيطالي يجري زحفاً وراءها.

إن للقصور مميزاتٍ بحيث يضمن للمحظيات، العيش عيشة راضية، لكن ليس لها حقوق في حياتها سواء كانت هانم السلطان أو عشيقة له، لأن وفاة السلطان فجأة، تجعل مسيرة حياتها رهناً بالسلطان الجديد وغالباً الإعدام على ماضيها، فنوريانو زوجة سليم الثاني ماتت مسمومة، وكذلك صافية زوجة مراد الثالث، هذا الواقع فرض على المحظيات التلاعب كلما سنحت لهن الظروف حيث يعتمدن مختلف الوسائل التي تضمن لها مقداراً قليلاً من الضحكات على ثغرن المزين بأحمر الشفاه.

ناهيك عن هذا وذالك، فإذا كان لهن أولاد، فإن هذا يثير همتهم على التنافس لإيصال أبنائهن لسدة العرش لتغدو (السلطانة الوالدة) ولتؤدي واجبها لخدمة بلادها، فهي أو دولتها أو الأقدار ساقطها كجارية إلى دولة لا حدود لاتساعها، حتى سلاطينها لا يعرفون حدودها ولا يعرفون أسماء المناطق التي تدور في فلكهم، وأكثر كلمة يعرفونها ويلفظونها (شام شريف) بسبب قافلة الحج، ولهذا اقتنعوا بما حققوه من انتصارات، وليس من قوة تجرؤ على مواجهتهم عسكرياً، فالحيلة هي الوسيلة التي تمكن المحظية من خدمة وطنها هذا من جهة، وكأنثى خبيثة من طفولتها بالفتن، ولاسيما الواقع الذي تعيشه لا يسمح لها أن تكون على هامش السباق إلى العرش، اللهم إلا إذا أنجبت ذكورا، أما المحظية التي أنجبت إناثاً، فكأنها لم تدخل القصر ولا تعرفه، ان دول أوروبة، كانت تتقصد ارسال جميلاتهن إلى القصر العثماني وليس صحيحاً أن المحظيات جنن فقط للسراي الهمايوني، فالباب العالي كان لديه مئات المحظيات،

(١) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٥٦١.

وللعلم، لم تكن المحظيات كافة خلاعيات وسافرات، فقد ارتدين ملابس بحسب الجهة الموكلة للعمل فيها وإفساد ما يمكن إفساده...^(١)

أ- السلطنة حفصة ١٤٩٥-١٥٣٤م:

زوجة السلطان سليم الأول ووالدة السلطان سليمان القانوني. وهي أول امرأة تلقب بـ "الوالدة السلطنة" فقد كانت سيدة ذات شأن عظيم وكانت المسؤولة عن إدارة جناح الحريم العثماني، وكانت يهودية وهي التي شجعت زوجها سليم على دس السم لوالده بايزيد الثاني، وهي التي دفعت السلطان سليم لمهاجمة الصفويين، وفيما بعد الإمارات التركمانية والزحف باتجاه بلاد الشام، وهي تتقن العربية، وكانت العقل المدبر في القصر، وقد هيأت لزوجها عرشاً متيناً، وهذا لأنها كانت تسعى بشكل دائم إلى حل المشكلات التي تحدث داخل الحرم، وهي من حضت زوجها سليم الأول على تقسيم السراي السلطاني إلى عدة أقسام، وكان ابنها سليمان يجلسها. كما أن السلطان سليم منحها ممتلكاته في الروملي، ووهبها البيت الذي اشتراه بدمشق في منطقة القابون، كما كانت تدفع مال الصرة على نفقتها الخاصة^(٢).

ب- السلطنة روكسلانة ١٥٢٠-١٥٥٨م:

زوجة السلطان سليمان القانوني ووالدة سليم الثاني. وهي أشهر امرأة في الدولة العثمانية صيتاً ونفوذاً، أقامت علاقات سياسية مع زعماء العالم بالخارج، وعاشت عيشة كلها تأمر وفسائس، فهي التي أباحت قطع رؤوس المحظيات اللواتي تعرضن لها بسوء، وهي من شجعت السلطان على قتل إبراهيم باشا فاتح العراق عام ١٥٣٦م (والأسباب الظاهرة في قتل إبراهيم باشا هي: ١- دخوله أذربيجان قبل مجيء السلطان. ٢- اتهامه بأخذ رشوة من الصفويين لمنع الحرب التي كانت ستجري في إيران. ٣- يعمل على الاستفادة من قيادته للجيش العثمانية، وسوف يعلن استقلاله. لكن الأسباب الحقيقية لمقتل إبراهيم باشا أنه كان تحت حماية حفصة أم السلطان سليمان واهتزت مكانته بعد وفاتها عام ١٥٣٤م، أما دور روكسلانة في ذلك كان في فرض تعيين أحد أبنائها الأربعة على العرش

(١) بك فريدون، أحمد، منشآت السلاطين، ج ٢، الاستبانة، ١٢٦٤م، ص ٣٥٦.

(٢) دائرة المعارف التركية، المجلد ٦، استانبول، ١٩٥٤م، ص ٦٥٢.

العثماني، وهم (جهانكير، محمد، سليم، بيازيد)، اصطدم بجهود ماهي دوران خاصكي زوجة السلطان سليمان القانوني الأخرى، وأم الابن الأكبر للقانوني (مصطفى ولي العهد)، فقد عارضت روكسلانة ووقفت ضدها، وأيدت إبراهيم باشا التابع لها أيضاً، وكسبت روكسلانة هذا الصراع من خلال دعم السفير الفرنسي للصدر الأعظم الذي يخوض الحروب الغربية أكثر من إبراهيم باشا، وتظهر أحد الرسائل الموجودة في أرشيف البلاط، والتي أرسلتها روكسلانة إلى السلطان سليمان في إحدى حملاته، وبطريقة موثقة جهود روكسلانة ومساعدتها ضد إبراهيم باشا: (سيدي إن غيابك عني أجج ناراً لا ينطفئ لهيبها، ارحم هذه المعذبة، وسارع في الجواب، لأنني قد أجد فيه ما يخفف عني، سيدي، حين تقرأ كلماتي ستمنى لو أنك كتبت إليّ أكثر للتعبير عن شوقك، وحين أقرأ رسالتك يكون ابنك محمد وابنتك مهرماه حولي يبكيان بدموع لا تنقطع، إن رؤية دموعهما تجعلني أجن،، تسألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشا، حين يجمعنا الله ثانيةً سأذكر لك السبب وستفهمني)^(١) وانصرفت إلى التخلص من ضررتها كلبهار (ورد الربيع) لكي تكون على مقربة من مكان إقامة عشيقها السلطان سليمان، فحرق قصرها واتهمت كلبهار بحرقه، ولشدة تعلق السلطان سليمان بخليته روكسلانة صدّقها، واستدعى كلبهار ووبخها وهددها بالطرد من استانبول، فأقسمت له على القرآن الكريم بأنها لم ترتكب ذلك، ووعداها إن لم تعتذر لروكسلانة فسيطردها، فاعتذرت وفي اليوم الثاني مرضت وخلال فترة قصيرة توفيت، فلبست روكسلانة السواد حزناً على ضررتها، ثم ركزت جهدها على التخلص من ابن كلبهار مصطفى الولد البكر للسلطان سليمان وولي عهده، فبدأت تتربص الفرص، وفي عام ١٥٥١م أقام السلطان سليمان عيد ميلاده في السراي، ولم تبق دولة في العالم إلا وشاركتة الفرحه، وبينما كان السلطان يتبادل الحديث مع مشاركيه في عيد ميلاده، اتجهت روكسلانة إلى مجلسه، وحالما علمت أنه رآها عادت، فظن السلطان سليمان الظنون، فأمر بإحضارها وسألها عما تريده، فقالت لا شيء يا مولاي، أراك تتلعثمين ما الأمر فأجابته ليس مهماً، فأصرّ عليها، فقالت له: ولي عهدك مصطفى أثار ضجة على الجبهة الفارسية، وطالب الجنود بعزلك، وأن مصطفى هو السلطان الأنسب، فجن جنونه، فأمر بتجهيز موكبه وإحضار مفتي الإسلام محمد أبو السعود، وانطلق بموكبه باتجاه الجبهة الفارسية في الفرقة التي تتصدى إلى تعديات الفرس، وحالما وصل عقد اجتماعاً، وسأل محمد أبو السعود: ما رأيك يا مولاي بتاجر اتتمن عبده على بضاعته للحج إلى بيت الله الحرام،

(١) اينالجيک، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٨.

وعندما عاد وجد عبده قد خانه، فما حكم الشرع على العبد؟ فأجاب محمد أبو السعود يُرمى بالرماح يا سلطان، وعلى الفور أشار السلطان إلى رماة السهام برميهم، فصاح مصطفى والسهام تخترق صدره، ماذا فعلت يا أبي؟ ماذا فعلت يا مولاي؟ وحينما مات أمر بوضعه على حمار وطلب أن يجولوا به ليراه العساكر ليكون عبرة، وغادر الجبهة قبل أن يُدفن، وحالما وصل استانبول في اليوم الثالث استقبلته روكسلانة وسألته عما حدث معه، فأجابها إجابة المنتصر باعتزاز لقد تخلصت من الخائن، فقالت له يا مولاي لو سجنته كان أفضل، وأردفت بعد لحظة، التخلص من الخيانة أفضل فرد السلطان سليمان صدقت يا روكسلانة، وأدى مقتل الأمير مصطفى إلى نتائج خطيرة على النظام السياسي بمجمله، أهمها:

١- حرمان الدولة من كفاءة مرتقبة فقد أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفاءات ممتازة تجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لأبيه.

٢- اندلاع حرب أهلية، في الدولة فالأمير سليم الثاني كان موضع ازدراء الانكشارية الذين ثاروا على اختياره مما شجع أخاه بيلازيد حاكم إقليم قرمان على الاستعانة بالساحطين من قوات الجيش مما أدى الى انقسام خطير فيه، خفف من آثاره قيادة سليمان القانوني الجيش ليقضي على تمرد ابنه الذي هُزم وفر إلى الأراضي الفارسية وطلب والده من طمامسب الأول أن يسلمه إليه مقابل أربعمئة ألف قطعة ذهبية، وفعلاً تم الأمر وذبح بيلازيد هو وألاده الخمسة عام ١٥٦١م^(١). وكان بيلازيد، يحتقر أمه ويحتقر اليهود^(٢)

ج- السلطنة نوربانو ١٥٦٤-١٥٧٦م:

زوجة السلطان سليم الثاني ووالدة السلطان مراد الثالث. لقبت بـ "السلطنة العفيفة" امتلكت الدولة، وغضت الطرف عن الحرملك وتركته لزوجها السلطان سليم الثاني الذي ما استفاق يوماً، بسبب اليهودي يوسف مندا ناسي، وقد دأبت نوربانو على حض زوجها السلطان سليم على فتح قبرص على

(١) الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، مطبعة الجامعة، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٦١٧-

٦١٨.

(٢) مؤنس، الجارية روكسلانا...، ص ٩.

أساس أن يعين يوسف مندا نانسي ملكاً عليها، لجمع الشتات اليهودي فيها، وفعلاً انطلق أسطوله من مدينة طرابلس الشام وفتح قبرص عام ١٥٧٠م، لكن السلطان رفض منحها لليهود، لأن أخته مهرماه حذرته من ذلك، وحالما أصبحت نوريانو السلطانة الوالدة، تصدت لمهرماه وسمّتها بعدما وضعتها في غرفة بأطراف القصر، وأحكمت الباب عليها. ولهذا وتحدياً لرفض زوجها منح اليهود قبرص، أسندت ليوسف مندا نانسي محاسبة القصر وجمارك استانبول^(١).

د-السلطانة صافية ١٥٧٦-١٥٩٥م:

من أشهر العائلات الإيطالية من أسرة بافو، اختطفت في أثناء احتفال من قبل القراصنة، وقدموها هدية للأمير مراد الثالث، فأعجبته، واتخذها خليفة له، وقبل أن تنجب ابنها الأمير محمد، كانت تُنْعَثُ بكاترين، وحالما أنجبت غلاماً سماها صافية لصفاء وجهها، وحالما توفي والده سليم الثاني قدمت له والدته(نوريانو) طبقاً من الفضة على رؤوس خمسة من أخوته، وكانت نوريانو (ضوء القمر) تحلم بتنفيذ مخططها رغم ما فعلته في غياب زوجها سليم رغم قصر مدة سلطنته، لكن صافية تصدت لها ودبرت مقتلها بدس السم لها^(٢)

ما يمكن استنتاجه: إن أولئك النسوة اللواتي ساقتهن أقدارهم إلى السراي الهمايوني، لم يعرفن طعم الهدوء، ولو عاد الزمن بهن، وعُرضت عليهن السلطنة لرفضنّها بشدة، فالقصر والدولة في حالة اضطراب، وعاشوا عيشة قلق وإرباك حتى في طعامهن، غير أنهنّ تدريجياً أسهمنّ في إيقاف تعدي العثمانيين الذين لا يسعون في حياتهم إلاّ للاعتداء على الجيران وهي صفة دأبوا عليها.

(١) دائرة المعارف التركية، المجلد ١١، إستانبول، ١٩٥٤م، ص ١٥٨.

(٢) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية....، ص ٦٦٤.

-استنتاج الفصل الأول:

تطورات ومراحل، تقلّب بها العثمانيون من قبيلة تتخفى خلف نسائها من هجمات المغول، لدرجة أن اليأس والقنوط، دفعهم لمغادرة بلادهم، وقذفتهم متاعب السفر، وبدهاء البحث عن المصالح احتمى أرطغرل بسلطان قونية كما ذكرنا حينما آزره على أعدائه من المغول، ولم يتمكن من فهم المجتمع الذي دخله فجأة وبعد مدة من معايشرة المجتمع الأناضولي، اشتكى من تجاوزات البيزنطيين وغاراتهم عليهم، فانبرى كعادة البدوي في قيادة المحاربين للرد على تجاوزات البيزنطيين واجتمع حوله اللصوص وقطاع الطرق والمؤمنون بالإسلام، وانطلقوا من سكودا إلى مدينة يني حصار (مدينة الحصار الجديد) وانتهى المطاف بهم في بورصة، وحولها أورخان إلى عاصمة لاستراحة جنده، وبوفاته خلف ابنه مراد الأول الذي أدرك أن ما لديه من قوات لا يضمن له حماية دولة ينوي توطيد أركانها، وبالتشاور مع كبير قضاتها جاندعلي قره خليل الذي عدّ جمع شبان البيزنطيين بموجب الخمس، وإرسالهم للعيش ببيت العائلات التركية، سبّب للدولة متاعب، والحل الوحيد، جمع أطفال المسيحيين ممن تراوحت أعمارهم من ٣-٥ سنوات على أن يربوا في قصور السلطان، فأصدر أمره بتشكيل لجان بموجب نظام الدفشرمه الذي ينص على التوجه لمناطق البلقان لجمع الأطفال .

بدأت الكرة العثمانية تتدحرج ما بين إخفاق وانتصار حتى عام ١٤٠٢م وانهمز السلطان يلدرم بايزيد أمام تيمورلنك، ومات قهراً لأن تيمورلنك وضعه في قفص، فمات من ساعته، فحملوا زوجته الصربية سبب موته، وقرروا عدم الزواج بالحرائر، وما إن تمكن محمد الأول من توحيد الدولة التي مزقتها مطامع أولاد بايزيد، حتى استمروا يحاربون البيزنطيين، وبعساكرهم من الانكشارية استطاعوا الوصول إلى القسطنطينية، وبدّلوا اسمها إلى استانبول، وباستانبول تحوّلت الدولة إلى سلطنة بلباس إمبراطورية، وبدأوا ببناء القصور، ومع وفاة محمد الفاتح مقتولاً غدت معظم دولته تعج بالقصور، وبما أن استانبول مهوى قلوب المسيحيين ورواد الثقافة، فقد توافد الكثير من جميلات العالم إليها، وتسلبوا خلسة إلى قصورها، لأن العثمانيين رفضوا الزواج بالحرائر، وغدت المحظيات موضوع بحث السلاطين.

الفصل الثاني

الدور الاجتماعي للحرم الهمايوني:

أولاً- المرأة العثمانية قبل فتح القسطنطينية.

ثانياً- موقف السلاطين الأوائل من المحظيات.

ثالثاً- ألقاب السلطان ومهامه.

رابعاً- منصب الصدور العظام:

١- صفاتهم

٢- صلاحياتهم.

خامساً- مشيخة الإسلام.

سادساً- موقف المسيحيين من ضريبة الغلمان.

سابعاً- دور الحرم اجتماعياً.

ثامناً-نظام الحرملك:

١-وضع المحظيات في الحرملك.

٢-حياة المحظيات في الحرملك.

٣-تحكم المحظيات بشؤون الدولة.

تاسعاً-دور المحظيات في تفكك الأسرة العثمانية:

١-تنافر الأسرة.

٢-غياب السلاطين عن الحكم.

عاشراً-دور الخصيان اجتماعياً.

استنتاج الفصل الثاني.

بنى الفاتح قصر الطوب (باب المدفع) قاعدة لملك دفع الآباء والأجداد دماء كثيرة من أجله، واجتهد لتحويله مقراً لسلطنة أبنائه من بعده، ولم يكتف بأن يكون مقر الدولة المرتقبة، بل ليكون مؤسسة حكومية تدير شؤون دولته برعايته ورعاية خلفائه، على أن يكون السراي الذي ابتناه تحفة فنية تخلد الآباء والأبناء برئاسة السلطان الحاكم، أديرت الدولة ومؤسساتها من قبل ديوان جمع بيديه مقاليد أمورها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإليه يتوافد الملوك والحكام لإقامة علاقات مع حاكمه، بعدما يقبلون العتبة الهمايونية، ولم يدر في خلد بانيه، أن مقر دولته سيغدو مأوى للنساء الهاريات من واقعهن، وأن يكون اهتمام أبنائه منصباً على تأمين ما تطلبه تلك الأوروبيات، وتوقع أن أبنائه سيلتزمون بوصاياه ووصايا الأجداد، لكن الأبناء عبثوا بالقيم ورموا القسم الأكبر منها في المضيق، لكي لا يعيق عبثهم ومجونهم تحقيق ما يحلمون به، وما تبقى وضعوه أمانة في صدور محظياتهم اللواتي خربن الدولة من داخلها، والحق يقال: إن ما تم سابقاً وما سيتم فيما بعد هو بتوجيه خارجي.

اتسعت مهام السراي الهمايوني (السلطاني) حيث ضم عدة إدارات، تدير الدولة إدارة محكمة، ومن مهام السراي الهمايوني: تربية أطفال الدفشمرة حيث تتكلف مؤسسة الحرملك مسؤولية احتضانهم وتربيتهم حتى سن العاشرة، فيكلف السلطان آغا الانكشارية بتعليمهم المبادئ الأولى للإسلام، من خلال مدرسين عسكريين، ومربين اجتماعيين، يحرصون على زرع الطاعة والولاء للسلطان بشكل دائم، فيرددون على مسامعهم صباحاً ومساءً (أيها الجنود الأبطال: أنتم أبناء السلطان وهو حاميك وأنتم أطفاله الصغار، وعليكم أن تحموه شباناً ميامين، حماكم وأنتم صغار، وقدم لكم العلم والكساء وكل ما يلزمكم، وعليكم ألا تخافوا الموت، وجنود الله لا يموتون، لأنكم مجاهدون، وعليكم رفع كلمته والدفاع عن عرشه وملكه من أعداء الدين والأشقياء والعصاة ممن فقدوا الإنسانية والأخلاق، وأن كل ما يُمنح لكم فهو منحكم إياه، لأنكم أبنائه وعليكم حمايته ومحاربة أعدائه، وكل من لا يطيع سلطانكم، يُعد كافراً بالله الخالق، وجاحداً للسلطان الساهر عليكم ليل نهار، ولا يحق لكم كأبناء أوفياء رحمة أعدائه، فالشفقة هو من يمنحها، وهو يمنح الأمان وبفضله تصبحون مجاهدين، والسلطان مصمم أن تكونوا جنوداً مؤمنين بالله ورسوله، وهو أخذكم صغاراً، بعدما ترككم أهاليكم، وقد حاول معرفتهم، لكنهم هربوا وتكروا لكم، فصمم على تربيتكم والعناية بكم، وهو اختار أسماءكم، واشترى لكم السلاح، لتدافعوا عن السلطان وملكه الذي هو ملككم، وكل الناس عبيدكم، وأنتم عبيد السلطان الذي أرسله الله عز وجل لرعايتكم، لتغدوا شبابه وأحبابه الأوفياء، لتجاهدوا في

سبيل نشر الإسلام، وبدفاعكم عن السلطان، تدافعون عن وطن السلطان، لأنه هو حامي المسلمين وديارهم^(١).

أولاً- المرأة العثمانية قبل فتح القسطنطينية:

تزوج السلاطين العثمانيون في مرحلة التطلع لتطوير الدولة وتوطيدها، ببنات حكام الدول المجاورة أو بنات الأعيان والأشراف، كما اعتمدوا في الوقت نفسه مبدأ المصاهرة وتبادل الأراضي، غير أن وصولهم إلى حياة الرفاهية أضاعهم حتى انحرفوا عن النهج السابق، وحملوا زوجة يلدرم بايزيد أوليفيرا الصربية (دسبينا) سبب موت بايزيد قهراً، فأقلعوا عن الزواج بالحرائر، واتجهوا للزواج بالجواري الأوروبيات دون كتاب شرعي يخولهم تسميتها زوجة، وإذا كانت المصادر والمراجع قد أطلقت على بعض الجواري هوانم السلطان، فلأن بعضهن أنجبن غلماناً، وقلةً منهن أصبحن سلطانات ومصادفةً تلقبن (بالسلطنة الوالدة)، وعملياً من آلاف المحظيات عشرات فقط حصلن على هذا اللقب، وبحسب المصادر أعتمد اللقب كمجاملة سياسية أكثر مما هو اسم شرعي، وليس للمرأة العثمانية أية علاقة شرعية بزواج السلاطين، واقتصر زواج السلاطين بالجواري بدايةً على المسيحيات كزوجة شرعية، وبعد وصولهن إلى إستانبول و بدءاً من تولي سليم الأول عرش السلطنة ودسه السم لوالده بايزيد الثاني عام ١٥١٢م، فخلع بعمله هذا رداء الشرعية ووضع القوانين والحياء جانباً حيث تزوج بمحظية يهودية اسمها (هلهغه) وبعدما أنجبت له غلاماً سمّاها حفصة، وتصوروا أنهم بزواجهم بالمحظيات، قد يمنعون التدخّلات السيئة التي يُحتمل أن يقوم بها الأصهار مستغلين قرابتهم من السلطنة زوجة السلطان، وهذا ما أكدته الفاتح في قانونه.^(٢)

(١) أوغلو، مدحت، التاريخ العثماني المصور، إستانبول، ١٩٥٤م، ص ٣٥٩.

(٢) اتخذ العثمانيون منذ مراحلهم الأولى مبدأً في زواجهم، ألا يرغموا زوجاتهم المسيحيات على الإسلام، ولا يجوز تسميتهن بأسماء إسلامية مالم تتجب غلاماً، ومن تتجب بنتاً تُسمى اسماً فارسياً وبناتهن اسماً عربياً لتأكيد إسلاميتهن/ للمزيد: بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص ١٠٤

ثانياً-موقف السلاطين الأوائل من المحظيات:

اعتاد العثمانيون على إرغام السبايا، العمل في قصورهم منذ عام ١٤١٧م، فضلاً عن شراء الكثير من الجواري بواسطة تجار الرقيق، ولم يكن السلاطين يميزون ما بين الجواري وبقية الخادמות، لأنهم لم يروا منهن سيئات، تجعلهم يتخذون موقفاً معادياً، ولا يجوز أن تكون الجارية مسلمة، فالمسلمة يجوز أن تعمل في السراي كخادمة حرة، لا تُباع ولا تُشتري ولا تُسجن إلا إذا اقترفت ذنباً يستحق السجن، وغالباً قد تبيت في السراي إذا رغبت، ولها حق الخروج كحرة، وليس كعبد،^(١) أما الجارية المسيحية التي جيء بها، فهي عبدة ليس لها أي حق، فقد دُفع ثمنها، ومهمتها تلبية رغبات السلطان الحاكم، وللجارية التي جيء بها مواصفات جمالية، وإذا لم تتوفر بها تلك الصفات لا تُشتري ولا تُخطف ولا تدخل للقصر، ولم ينظر السلاطين إلى الحسب والنسب، فقط الجمال هو المعيار المطلوب، ولهذا تبارى السماسرة، في شراء الفتيات الجميلات من مختلف بقاع العالم الأوروبي، والويل للسماسر إذا أحضر جارية مسلمة (يُسجن مدة شهر، ويطرد من إستانبول، هذا إن لم يمت من كثرة العذاب)، وقد شدد السلاطين على هذه الناحية وعدّوها من الكبائر، ولم تفدنا المصادر، هل طبق العثمانيون هذا القانون فقط على المسلمات ذوات المذهب الحنفي؟ أم على جميع المسلمات على اختلاف مذاهبهم؟ علماً أن السلطان القانوني، أمر بضرب الشراكسة إثر ثورة جان برد الغزالي ١٥٢١م ضرباً شديداً وشرّد أطفالهم ونساءهم، وأمر جنوده بإحضار الجميلات من نسائهم للعمل كخادמות في قصوره، ولم نعثر على أية وثيقة تتضمن أنه زوّجهم لقادته، رغم الجمال والأناقة التي تتمتع بها الشراكسيات،^(٢)

ويرد أحمد رفيق في مؤلفه، تكليف الشراكسيات كخادמות في القصور، إلى أنهم على المذهب الشافعي ولا نملك وثيقة دينية تسوغ للعثمانيين التحليل والتحريم، فالإسلام إسلام الشهادة، وليس إسلام مذاهب، وقد عاب الكثير من العلماء على الحكام التحليل والتحريم الكيفي، أما على صعيد تنافر الرجال، فأولاد الفاتح، جام وبايزيد تحاربا قبل أن يُدفن الفاتح، وأبناء أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م تذابحوا فيما بينهم، وهكذا، ابتلى العرش العثماني بداء البغضاء والافتتال، وتجلّت الغيرة القاتلة

(١) يشار، أوزجان، مهام الكزلار، إستانبول، مطبعة الهلال، ١٩٨٦م، ص ٢٤.

(٢) المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، ١٩٧٤م، ص ١٣.

بالعرش وبالجميلات، نتيجة فتح أبواب قصورهم للمحظيات الأوروبيات، فضلاً عن ضياع الثقة بين الأخوة^(١)

ثالثاً - ألقاب السلطان ومهامه:

الألقاب في اللغة العربية من الجذر لَقَب، ويقال اختاروا له لقباً ملائماً أي اسماً، واللقب ما يُسمَّى به الانسان غير اسمه الأول يلائم صفة من صفاته ذماً أو مدحاً، والغاية من اللقب، أن يعرف المرء التباين في درجة الرفيع والوضيع وتمييز مرتبة الصغير من الكبير والخاص من العام، وهذا يؤكد ظاهرة التمايز كافة، للجِد والاجتهاد، ويعرف مكانته في المجتمع، غير أن هذا التمايز انحرف كثيراً عن مضمونه ومعانيه الأخلاقية، ومنح أصحاب المناصب الرفيعة ميّزة التعالي، رغم قلة تحصيلهم العلمي، وحرص أصحاب القرار الاعتماد على الجهلة، لأنه أثوب لهم^(٢)، وورد في القرآن الكريم ذكر الألقاب (ولا تتأبزو بالألقاب)^(٣) ومعناها لا تتداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها

١ - الباديشاه:

لقب ملكي من اللغة الفارسية مكوّن من لفظين بادِي وتعني السيد وشاه وتعني الحاكم أو الملك أو السلطان وقد ورد هذا اللقب بالنصوص التأسيسية العثمانية بمدينة القاهرة^(٤).

(١) رفيق، أحمد، تاريخ العالم، ص ٢٤٤.

(٢) معجم الغني، لسان العرب.....

(٣) القرآن الكريم، سورة الحجرات، أية رقم ١١.

(٤) اعتمد باديشاه بفتوى دينية أزهرية، وتحليله من قبل جامع الأزهر أصبح أكثر قبولاً/ للمزيد: فتاوى الأزهر، دار

المعارف الإسلامية، مصر، ج ٩، ص ٢٦٨.

٢- خاقان:

تعني السلطان الأعظم أصلها قان أو قان القان أو القانان، وقيل هي الرسم العربي للقب السلاطين الأتراك إذ كان يحمل هذا اللقب حكام الشعوب العريقة في القدم التي كانت تسمى نفسها تُركاً منذ القرن السادس الميلادي وقد أخذوا هذا اللقب عن أسلافهم.^(١)

٣- خليفة:

الجمع: خلائف وخلفاء، والخليفة: المُستخلف، من يخلف غيره ويقوم مقامه، اتخذ من وفاة الرسول الكريم (ص)، والخليفة: السلطان الأعظم، لقب أطلق على حكام المسلمين في العصور الماضية، والتاء للمبالغة، وفي القرآن الكريم (إني جاعل في الأرض خليفة)^(٢).

٤- خنكار:

وتلفظ أونكار ومعناها السعيد، استخدمت كلقب بمعنى حاكم أو سلطان وكان سلاطين آل عثمان يعتمدونه وهو بمعنى السلطان الأعظم، وقد أشار البعض إلى أن سلاطين آل عثمان استخدموا هذا اللقب منذ القرن السادس عشر الميلادي على الأقل، كما لُقّب به كثير من الأعيان في الدين والتصوف بشكل خاص. كما ورد هذا اللقب بالنصوص التأسيسية العثمانية بمصر بنص سبيل خسرو باشا أثر "٥٢" ٩٤٢هـ-١٥٣٥م لقباً للسلطان سليمان القانوني بصيغة الخنكار الأعظم.^(٣)

(١) رفيق، أحمد، تاريخ العالم، ص ٢٣٥.

(٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٣) يقع سبيل خسرو باشا بالنحاسين في شارع بين القصرين في مصر، أنشأه خسرو باشا الوالي العثماني على مصر ١٥٣٥-١٥٣٧م، وهذا السبيل أول سبيل أنشئ في العصر العثماني، (أمر بإنشاء هذا السبيل المبرور اغتنام الثواب والأجر في أيام مولانا الإمام الشريف ظل الله الوريث الخنكار الأعظم مالك رقاب الأمم ملك ملوك العرب والعجم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان.....) / للمزيد: زكي، عبد الرحمن، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٣

٥- السلطان:

أصله في اللغة الحجة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(١) أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، وسُمِّي الحاكم العثماني بالسلطان، لأن هذا المصطلح، حجة دينية، تخولهم قيادة العالم الإسلامي، الذي سار خلف هؤلاء السلاطين، وعدهم أنصاف آلهة.

٦- الغازي:

لقب فخري من أصل عربي، ومعناه المجاهد في سبيل الله السائر لملاقاة العدو والغزو في الأصل الإغارة والهجوم^(٢)، و في القرآن الكريم (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(٣) والتفسير عذاب الدنيا بالقتل والسبي والجزية وعذاب الآخرة بالنار، وقد دأب العثمانيون الأوائل على اعتماده لعدة أسباب، الصفة الدينية التي تفرض سطوته على أتباعه، وأن حامل اللقب يجاهد في سبيل الله، واستمر سلاطين آل عثمان باستخدامه اعتزازاً منهم وافتخاراً بالانتصارات التي أحرزوها لاسيما على العالم المسيحي، وقد عُرف هذا اللقب عندهم منذ قيام دولتهم فقد تلقب بلقب الغازي (أورخان) ووصف أبوه الذي تنتسب إليه الدولة بهذا اللقب أيضاً.

٧- خادم الحرمين الشريفين:

وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليلبغ السلطان سليم ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الديني، ومرد اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد زعامتهم للعالم الإسلامي^(٤).

هذه الألقاب التي تلقب بها سلاطين بنو عثمان هي ألقاب سياسية ودينية، أما الألقاب الدينية والعلمية، فهي كثيرة، يخلج لقمان الحكيم من أن يتصف بها مثل، بحر المعرفة، جامع علوم المشرق

(١) القرآن الكريم، سورة ابراهيم، آية ٢٢.

(٢) معجم لسان العرب، الرائد، الوسيط.....

(٣) القرآن الكريم، سورة آل عمران، ال آية ٥٦.

(٤) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٦٦.

والمغرب، ناهيك عن الألقاب العسكرية، افتقر إليها نابليون وغيره من القادة العظام، والمؤسف أن العالم الإسلامي والعرب بشكل خاص يهللون لعظمتهم، وأنهم حجوا إلى بيت الله، دون أن يراهم أحد^(١).

رابعاً - منصب الصدر الأعظم:

اقتدى العثمانيون بالسلاجقة في إيجاد منصب الوزير وله معانٍ كثيرة منها (الحاجب - القائد - المفتش - صاحب براءة أو شهادة ملكية) وأول ما أطلق هذا اللقب كان على القائد العسكري الكبير^(٢) في عهد أورخان (١٣٢٤-١٣٥٩م) كانت الإدارة تضمّ وزيراً واحداً فقط، وفي عهد مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م) أصبحت الإدارة مؤلفة من وزيرين أحدهم أطلق عليه الوزير الأول أو (الوزير الأعظم) وكان اختيار الوزير الأعظم حتى عهد محمد الفاتح يتم من هيئة رجال العلم باستثناء وزيرين اثنين، وفي زمن السلطان محمد الفاتح رُفِعَ الوزير مقاماً عالياً، والفقرة الأولى من القانون الأساسي الذي وضعه للدولة (قانون نامه) توضّح ذلك، ومما جاء فيها (ليعلم أولاً أنّ الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء، إنه أعظمهم جميعاً، وصاحب الصلاحية المطلقة في إدارة شؤون الدولة، أمّا القيم على أملاكي فهو الدفتر دار غير أنّ الصدر الأعظم هو رئيسه، وللصدر الأعظم في حركاته وسكناته وفي قيامه وقعوده حق التّقدم على جميع موظفي الدولة...)^(٣).

(وكانّ الوزير (الصدر الأعظم) معتمد الباديشاه المطلق الصّلاحيات يسيطر على فروع الإدارة كلّها ويبتّ في كافة شؤون الدولة، وفي قضايا الموت والحياة أيضاً، فقد كان يحمل خاتم السلطان الذي تختتم به الوثائق المهمّة)^(٣)، ومن علامات تعيين الوزير الأعظم الخاتم الهمايوني، واسترداد هذا الخاتم يعني عزل هذا الوزير، وفي حال وفاة أو عزل الوزير الأعظم فغالباً ما يتم تعيين الوزير الثاني أو

(١) يمكن قراءة كتب الدولة العثمانية التي تعدّ بالمئات وكلها تمجيد لهم ولعظمتهم الوحيدة، يسأم القارئ من تفخيمهم (الطالبة).

(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٥٦٤.

(٣) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٣٦١.

(٣) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلها للعربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٣٠.

الثالث بدلاً منه^(١) وقد حفظ له نظام التّشريفات الخاص بالبلاط مقامه كنائب عن السُّلطان فكان يتقبّل في أيام ثابتة من الأسبوع (شأن السُّلطان نفسه) ولاء موظفي البلاط والدّولة ولا يظهر للجماهير إلّا وسط حاشية ممتازة تحيط به^(٢)، وكان قصره في الباب العالي حيث يجمع أركان الدّولة للمشاورة إلى أن تحول إلى مقر الحكومة الحقيقي فالصّدر الأعظم احتلّ المركز الثّاني بعد السُّلطان^(٣).

إنّ انشغال السّلاطين الأوائل بالفتوحات، جعلهم يمنحون الوزير الأوّل صلاحيّات واسعة (صلاحيّات تفويضية) وفيما بعد أصبح يسمى وزير تفويض بصلاحيّات واسعة بصفته ممثّل للسُّلطان. وهذه الصّلاحيّات كانت تُمنح من قبل السّلاطين للوزراء، فُتسمى وزارات تفويض، ومما حدث أيام السُّلطان سليمان القانوني، أن حوّل الأمر إلى الصّدر الأعظم إبراهيم باشا (وكان أبوه يونانياً من برغه) وجعله جزءاً مهمّاً من صلاحيّاته وسلطته الخاصة كسلطان وذلك في البراءة (الفرمان) الّذي رفعه فيه عام ١٥٢٤م إلى منصب الصّدارة العظمى، وقد استمر إبراهيم باشا بهذا المنصب عدّة سنوات مؤيداً بثقة السُّلطان الّذي روّجه بأخته، لكنّ هذه الثقة المقرونة بتزويجه من أخت السُّلطان وما شهدته السّلطنة من مشكلات في أواخر عهد سليمان القانوني، أدّت إلى توجيه تهم كثيرة للصّدر الأعظم منها الطّمع بعرش المجر والطّمع في عرش السّلطنة نفسها وفي ١٥ آذار ١٥٣٥م، وبوشاية من روكسلانة زوجة السُّلطان سليمان قُتل الصّدر الأعظم إبراهيم باشا في مضجعه في السّرايا الملاصقة لسرايا السُّلطان، ثم أعلن السُّلطان تخليه عن إدارة الدّولة إلى الصّدر الأعظم رستم باشا، وانزوى عن الحياة العامّة، وأصبح شبيهاً بموظف دائم وخلفائه في قسم الحرملك، وبتصرفه، انتزع من خلفائه عرش آبائه وأجداده، وجسّد في دولته غيابهم عن السلطة، ومَنَحها للصدور العظام الّذين تصرفوا بشؤونها، فباعوا واشتروا بهم، ولم يكن له ولا لخلفائه دراية بما تعانيه ولاياته من ظلم وتعدّ وسرقة ونهب وقتل وتشريد^(٤)

إنّ الصّدور العظام الّذين عُهد إليهم قيادة الجيوش وإدارة الدّولة بدؤوا يصغون إلى زوجات السّلاطين اللواتي بدأن يتدخّلن في شؤون الدّولة فبيعت المناصب إلى شخصيات ضعيفة، وتخلّى

(١) الضيقة، حسن أحمد، الحرم حيّاته مواصفاته، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٨.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٧٤.

(٣) قانون نامه، ص ٤٦.

(٤) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية ج ١، ص ٣٥٨-٣٦٣.

الجيش عن نظامه واتّجه إلى التّدخل بالشؤون الدّاخلية وازدادت مسألة البذخ واختلطت الصّلاحية، وتناسى العثمانيون تقاليدهم وذابوا في مجتمعاً مدنياً تحركه المعيشي متسارع تضيق فيه قوى أكبر من الإدارة العثمانية، وقصّرت القيادة عن محاسبة موظفيها وقادتها الذين يقبضون على زمام السّطة فيها^(١)

١- صفاتهم:

من الصّفات الواجب توافرها بالوزير الأعظم أن يكون قوياً قادراً وصاحب تجربة وعلى معرفة واسعة في أمور الدّولة، وإلا ستعم الفوضى إدارته، وقد استمرّ ذلك حتّى أواسط القرن السّادس عشر الميلادي، وبعد ذلك ازدادت مشكلات الدّولة العثمانية، فتمّ تعيين أشخاص في منصب الصّدر الأعظم ضعفاء قليلي الخبرة والتّجربة بالرّغم من وجود البعض منهم، ممّن اتصف بالقوّة والحكمة والمعرفة، منهم: (قره مصطفى باشا-كوبريلي محمد باشا - فاضل أحمد باشا كوبريلي).

٢- صلاحياتهم:

الصّدر الأعظم كان بمثابة الوزير الأوّل ينفذ أوامر السّultan وقراراته وينقلها إلى كبار الموظفين وحكام الولايات والأقاليم، كما يقوم بإيصال شكاوى ومقترحات كبار رجال الدّولة من الوزراء والعلماء والحكّام والعسكر والرّعايا إلى السّultan عندما يرى أنّها ضرورية ومهمة للدّولة، ويستطيع أن يُصدر بعض القرارات دون الرّجوع إلى السّultan أو مشورته، وأيضاً كان يترأس الوزراء والأمراء، ويتقدّم الجميع في مجال (البروتوكولات) بحسب قانون (نامة)، وفي النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر الميلادي نص القانون الذي أصدره الفاتح المسمى (نامة التوقيعي) أن الصّدر الأعظم هو الوكيل المطلق للسّultan في أمور الدّين والدّولة وتأمين نظام السّطنة، و أصبح الصّدر الأعظم مسؤولاً عن إدارة الدّولة وتنفيذ الأحكام (الحدّ - الحبس - القصاص - النّفي - التعذيب - الإعدام - سماع الدّعاوي - تطبيق الشّريعة الإسلامية ... الخ)^(٢) كما كان يقوم بتعيين أصحاب المناصب العلميّة (العلماء) والسيفيّة (العسكر حملة السيف) وعلى الرّغم من صلاحيات الصّدر العظام وامتلاكهم

^(١)Fhri belen 20 yuzul,osmanli tarihi. Istanbul <1974p243

^(٢) الضيعة، حسن، الدولة العثمانية (الثقافة والمجتمع والسلطة)، دار المنتجب، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٩٦.

الشخصية والخبرة والكفاءة، فقد كانوا يشعرون بنفوذ السلطان وسيطرته عليهم ولم يكن، أقواهم يستطيع التّخلص من هذا الشعور، وعندما كان الصّدر العظام يقدّمون عرضهم للسلطان كانوا يقدّمون معه تحريراً يعرف باسم (التّخلص). وقد كان للتّخلص أنواع: التّخلص على عرض والتّخلص المستقل يُعدّها لهم رئيس الكُتّاب بأسلوب سهل تُعبّر عمّا هو مطلوب بشكل واضح وتكتب بخط النسخ العريض حتّى يقرأه السلطان ببسر وسهولة، ثمّ ترفع إلى السّراي وعندما تصل إلى السلطان يكتب عليها بالخط الهمايوني عبارة موجزة مثل (منظورم أولدي) أي **اطلغنا عليها**، وتعاد بعد ذلك إلى الصّدر الأعظم ليقوم بتنفيذ مضمونه.

خامساً- مشيخة الإسلام:

شيخ الإسلام هو المفتي الأول، ومهمته تولي رئاسة طبقة العلماء في كل ولايات الدولة وألويتها، ويُعدّ الشخصية الثالثة بعد السلطان والصدر الأعظم من حيث الأهمية، فرأيه وكلمته الحكم الفصل في القضايا الحقوقية والدينية، و تحتاج الدولة العثمانية إلى فتواه في مختلف القضايا الحياتية والدينية وحتى إعلان الحرب، ولا يمكن للسلطان قيادة جيوشه لأية حرب ما لم يحصل على فتوى تسوّغ له تحركه العسكري، وشيخ الإسلام (كان لقبه شيخ العسكر قبل فتح القسطنطينية) من حقه الشرعي تحديد وتصحيح مسار الدولة بحسب الصلاحيات التي منحه إياها الشرع سواء كانت شرعية أم باطلة. أما بقية المفتين، فهم موظفون في المؤسسة الدينية، وتنصب مهمتهم على إصدار الفتاوى التي يرغب شيخ الإسلام إصدارها^(١).

تعددت أسماء مفتي الإسلام وألقابه في الدولة، ففي بداية إقامة الدولة اعتمد **قاضياً**، وعندما كُلف بمرافقة الحملة العسكرية لإصدار فتواه بحق الخونة أو العملاء أو الأشخاص الذين وقعوا بالأسر، أطلق عليه **قاضي عسكر**.

لم تكن مؤسسة القضاء وفقاً على شخصية معينة، بل ضمت عدة قضاة يطلق عليهم (قضاة العسكر)، وبعد قاضي بورصة في أثناء فتحها من قبل أورخان جاندولي قره خليل أول مسؤول من بين العلماء في أجهزة الدولة إبان قيامها.

(١) أوغلو، احسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص ١٧٨-٢٩٩-٣٠٣.

اعتمدت الدولة بعد فتح بورصة على قاضي الأناضول، وحينما استولوا على الجزء الأوروبي منطقة الروملي، عينوا قاضياً لهم وحددت مهامه حيث كُلف بتعيين القضاة الشرعيين في المناطق الإسلامية، وقاضي الأناضول حمل مسؤولية إدارة الشؤون القضائية من تعيين القضاة والحكام الشرعيين وإقامة المحاكم في المناطق المسيحية.

حدّد راتب قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروملي يومياً بخمسمئة أقجة، لكل منها، كما ويتقاضون مواريث فئة العسكريين الإداريين ورسوماً على التعيينات التي يقومون بها للقضاة والمدرسين في المناطق المحددة لكل منهما، وبعد توقف العمليات الحربية للدولة العثمانية، أقامت الدولة هيئة مشيخة الإسلام، وتولت القضايا الدينية، وبتأسيها شيخ الإسلام، وكان بإمكان شيخ الإسلام إصدار فتوى بعزل السلطان، إلا أنها لم تؤد دورها بشكل فعال إلا في القرن التاسع عشر^(١).

سادساً-موقف المسيحيين من ضريبة الغلمان:

من الدوافع التي تثير التساؤل، لماذا لم يكتف بنو عثمان بالشبان فقط، ولماذا شملوا البنات الأرثوذكسيات، فضلاً على أن الخصيان البيض كلهم من البلقان وأرثوذكسيين فلقد (هدموا دولهم، واختطفوا أطفالهم وفيما بعد سرقوا بناتهم كمحظيات وشبانهم أيضاً)، وأشار أنطوان طريبه، أن العثمانيين، تعمدوا ملاحقة المسيحيين الأرثوذكس، لكي لا يطالبوا العثمانيين في مقبل الأيام بالرد على أفعالهم بحقهم^(٢). إنَّ الكثير من القراء والكتّاب المسلمين لا يدركون حقيقة ضريبة الغلمان، وبالرجوع إلى وثائق تلك المرحلة أو ما دونه كُتابها، كانت ضريبة الغلمان عملاً ممنهجاً لإذلال طائفة مسيحية مسالمة استضعفوها، غير أن الأتراك العثمانيين، عدّوا ضريبة الغلمان عملاً إنسانياً، ووفق الأتراك العثمانيون في تطبيقها، والبعض فسرّها بعكس مضمونها جلّهم من اليهود وبعض الأخوة المسيحيين ممن يكرهون العثمانيين، دون أن يدركوا أنَّ الإسلام الذي اعتمده الأتراك، خلق طبقات اجتماعية وتجاهل العدالة، ولم يطبق المساواة بين السيد والعبد، وتناسى الإنسانية، ولم يأت الإسلام لطائفة دون أخرى أو أمة أو قومية لوحدها^(٣).

(١) مفتي الإسلام، مهام مشيخة الإسلام، إستانبول، ١٢٨٧هـ. ص ٩٥-١٢٣.

(٢) طريبه، أنطوان، الأرثوذكس المسيحيون في قبضة الجلاّد، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٥.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء، سجل الكنيسة، رقم ١٣، ص ٢٣٤ (ويحتوي على أعداد المسيحيين الذين شملتهم الضريبة)

المهم في الأمر لم تلاحظ هذه القوى التي جمعت بأنها تعامل معاملة العبيد، فالعثمانيون بدءاً من عثمان وحتى تولي يلدرم بايزيد الأول كانوا يجالسون عساكرهم وقيموهم الولائم ويتبادلون الأحاديث، ويسردون تحركاتهم الحربية ومهارتهم مع الأعداء، وكان السلطان (الغازي) يفتخر بأحاديثهم، علاوة على ذلك فإن الباديشاه حتى عهد الفاتح كان يصدر الفرمانات وهو جالس بين الشعب (الشعب هنا عساكره وعناصر إدارته)^(١).

أما بروكلمان المستشرق الألماني فيذكر: «كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة والواقع أنه استثار حسد الأتراك أنفسهم فكانوا يسعون في أحوال كثيرة إلى دس أبنائهم في صفوف الغلمان من النصارى».

إن كانت الحكومة المركزية، قد أوقعت عقوبات شديدة وصارمة بحق مرتكبي حوادث الغش والتزوير، علماً بأن هذه المساوئ إذا مضت دون كشف أمرها . لم تقض على الكفاية القتالية لفيالق الإنكشارية.

لم يقلق من ضريبة الغلمان إلا العائلات المسيحية المتعصبة التي كرهت أن يرتد هؤلاء عن المسيحية حتى ولو كان مستقبلهم زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة، لكن هذه العائلات لم تتوقع أن هؤلاء الغلمان هم الهيئة السياسية والقضائية والإدارية للدولة العثمانية التي بسطت سلطانها بل الأصح لسلطانهم، وإن ما فعله السلطان سليمان بإسناد منصب الصدارة العظمى مع قيادة إدارة الدولة وقيادة الإنكشارية إلى الصدر الأعظم وعلاوة على ذلك، فلقد ترك عادة الخروج إلى الديوان كما هو متبع من قبل السلاطين السابقين، وذلك بإيحاء من رستم باشا الكرواتي زعيم المرتشين والمخالفين^(٢).

يعلق عبد العزيز الشناوي على موقف المسيحيين من ضريبة الغلمان قائلاً: (إن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموماً الذين يزالون يهاجمون ضريبة الغلمان في الدولة العثمانية، إنما تتنبق حملاتهم من الدافع الديني وإنهم لا يزالون يشعرون نحو الأتراك بالكراهية

(١) أفندي، مطانيوس، الأرثوذكس عماد الدولة العثمانية، برلين، ١٨٧٦م، ص ٢٠٠.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٩٩ (يعني أن اليهود والأتراك تسلكوا إلى الإنكشارية دون معرفة ولاة الأمر، والعرب وحدهم ظلوا خارج دائرة الإنكشارية).

(الشديدة)

(إن الدولة العثمانية أخذت بأيدي هؤلاء الغلمان رجولة، وتربية، ومكانة مرموقة (الجندية). أما الباحث الأمريكي (ليبر Lybyer) فيقول تعليقاً على ضريبة الغلمان: (ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جرأة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون، فليس لهذه التجربة نظير سوى في جمهورية أفلاطون)^(١).

بحسب الدراسات العلمية الموثقة، لم يطبق العثمانيون العدالة على الجميع سواء أكانوا غلمان ينحدرون من عائلة أرستقراطية أم من طبقة الرهبان أم من أبناء الرعاة والفلاحين، وعاش الجميع تحت رعاية أب واحد هو السلطان ووطن يكسبهم الفخر والكرامة وهم عثمانيون جميعاً، لكنهم تناسوا أنهم اختطفوهم من أحضان أمهاتهم أطفالاً صغاراً، وبحسب الرسالة التي سلمها انكشاري إلى أمه في هنغاريا قائلاً لها (يشبهني في الهيئة وأخبرني عن الكثير من أمهات فقدوا أولادهم، وأنا لا أعرف أمي، ولا أخوتي، فرسمني ووعدني إيصال رسالتي إليك، أماه ليتني مت صغيراً ودفنتني بين أحضانك لبرهة كنت استرحت، أماه ويل قلبي، أماه أنا جندي شجاع قاتلت في مناطق متعددة وعندما كنت أقاتل في المناطق المسماة البلقان، كما أخبرني التاجر، سمعتُ أمّاً تقول لنا: نحن أهلكم، لا تقتلونا نحن أمهات وأنتم فلذة أكبادنا، سرقكم الوحوش منا، كنا نضحك منها أنا ورفاق سلاحي، ماذا تقول هذه المجنونة، نحن أولاد السلطان، إنهم كاذبون أنا أخذوا ثلاثة أولاد لي، أماه رضاك على جندي معتوه، لقد أصبت في لغم أرضي بالقرب من منطقة يسمونها تبريز وبرعاية سلطان العالم مراد الرابع، نقلوني بأمره على حصان إلى إستانبول، وانتقلت بتجار في خان بمدينة إستانبول أصبحت أمشي على....؟)^(٢).

إن الدولة العثمانية لم تنتظر إلى الحسب والنسب لهؤلاء الغلمان، بل نظرت إلى الكفاية العسكرية (بعد التدريب)، وقد عَهدت لمن يتحلى بها أعلى المناصب إمّا والياً وإمّا صدرّاً أعظماً، أو آغا للانكشارية، ولم تسمح لمسلم أن يوجه الإهانة إلى غلام، لأن الجميع أبنائها ويمثلون شرفها العسكري، وأن الغلمان

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية ج ١، ص ٤٨٥.

(٢) عشرات الوثائق عن الجنود المسيحيون يرسلونها إلى أهاليهم في البلقان، هذه الرسالة وردت في أرشيف رئاسة الوزراء هكذا.

أيقنوا بسلطانهم وبدولتهم واعتنقوا الإسلام ووجدوا بالإسلام العدالة والسماح والعفو حتى عن المذنبين من المسيحيين الذين بالغوا في كراهيتهم للإسلام، غير أن السلاطين الأوائل ومن تلاهم، تناسوا عن قصد، أن جمع مئات الأطفال، غدا جرحاً في صدور آبائهم وأمهاتهم، وأن الضعف الذي يتربص الدولة العثمانية، سيدفع من تبقى من هؤلاء الشبان للتساؤل أين أهلهم، وأن الشبان الذين حوّلهم إلى خصيان وأن الفتيات اللواتي انتزعن من بين أهلهم هو جرح ينزف دماً في الصدور^(١).

سابعاً - دور الحرم اجتماعياً:

قبل أن تغدو القبيلة دولة، وقبل دخولها الأناضول، لم تكن تعرف مسألة الفصل ما بين الرجل والمرأة، كما فرضوه على نساء قصورهم فيما بعد، وليس لدينا معلومات حول مكانة المرأة في القبيلة، لكن من المؤكد، أن زوجة قائد القبيلة كانت تحظى بمكانة توازي مكانة زوجها، وحالما تحركت القبيلة للجهاد، حرص قادتها الذين حملوا مصطلح غازي على مسألة العزل، وقلما تم اختلاط ما بين الرجل والمرأة، ناهيك أن هذا الجانب لم يحظَ باهتمام الخاصة والعامة، لأن هناك مسائل مصيرية، فالفصل في حالة الحرب لقبيلة تقاوت لتأمين استقرارها، أمر لا شأن له، ورغم خوض قادة القبيلة التي تحولت دولة بعدما اتخذت بورصة عاصمة لها عام ١٣٢٤م، لكنهم دأبوا على الزواج منذ اللحظة الأولى من خارج القبيلة وتحديدًا من نساء غير نساء القبيلة، فإن زواجهم هذا أسهم بضياغ نساء القبيلة، وحتى رجال القبيلة لم يرتبطوا بقبيلتهم البتة، وكأنها غدت محظية تبحث عن يتزوج بها، لأن رجال القبيلة وشبابها دهشوا بأناقة البيزنطيات الشقراوات وجمالهنّ، ومن دون حساب عواقب فعلتهم تدافعوا للزواج بهنّ، وتناسوا أن نساءهم ستندوب أو بالأحرى ذابت في المجتمع الجديد^(٢).

الجدير بالذكر، تصرف السلاطين بدايةً بالمحظيات كيفياً، وفيما بعد، تصرفت المحظيات ليس بالسلاطين كيفياً، بل باعوا واشتروا في دولتهم، وبحسب نظام الحرملك على المحظية تعلم اللغة العثمانية بسرعة، لكي تتفاهم مع السلطان وتزيل همومه، وربما وقع اختياره عليها، ومن لا تتقن العثمانية لا تتحلى بمواصفات الجارية بحسب ما دُرِبت عليه، فلا يحق لها المشاركة بالعرض الذي

(١) أوغلو، احسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص ٣٨٣.

(٢) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٢٣٥.

يحدث يومياً، وللعلم ممنوع أن تُسأل أية محظية عن دينها، ويُحرم على المسلمات أن يكنّ من المحظيات، والسلطان الحاكم لا يُرغم من يعاشرهنّ اعتناق الدين الإسلامي ولا حتى التي قُبلت كمحظية أن تكون بالحرملك^(١)، وتجمع الدراسات التي اهتمت بشؤون الحرملك، لم تثبت أن سلطاناً واحداً فرض المعاشرة على أنثى، مهما كانت جميلة، وبحسب الروايات الشفهية، فالمعاشرة ليس قضية حيوانية كما يفهمها البعض، فالسلطين العثمانيون أرادوها لحظة ترويح واسترخاء، وهو جانب جداً مهم، فالسلطان سلطان المسلمين والمسيحيين واليهود بحسب ما تلقب به السلطان محمد الفاتح فور دخوله القسطنطينية، وبحسب الشرع لا يجوز له الزواج بامرأة غير مسلمة، وإذا تزوجها فعليها أن تعتق الإسلام، وإلا فزواجه غير شرعي، ولا سيما إذا لم يعقد قرانه على المحظية التي عاشرها وبوجود شهود، ولا يحق له أن يتلقب بحامي المسلمين ولا أمير المؤمنين، فهذا ينقص من مكانته دينياً^(٢). والشرع يفرض على علماء المسلمين، بما أنهم حراس الدين، مطالبة السلطان العثماني الحاكم **بعده** أمور:

- ١- لا يجوز له اصطحاب نساء دون زواج شرعي.
 - ٢- لا يجوز له الزواج بامرأة غير مسلمة، وإذا تزوج، فعليها إعلان إسلامها.
 - ٣- لا يجوز أن تكون سافرة وخلاعية، وأن تجالس الرجال الغرباء حاسرة الرأس.
 - ٤- لا يجوز تبني ولادة محظية، تعيش خارج مسكنها الزوجي، فهي عشيقه، وهذا تحديداً محرم على سلطان المسلمين.
 - ٥- لا يجوز لخليفة المسلمين الزواج للمواصفات الجسدية للمرأة التي أعجبهته.
- لم يلتزم السلطين بالشروط لأنهم نظروا على أنفسهم أنهم أكبر من البشر، بل هم رب الأرض، استناداً إلى مقولة جدهم يلدرم بايزيد الأول، عندما عاتبه قومه على قتله لأخيه، قال: كما أن الله رب السماوات، وما يشرعه علماء المسلمين لا ينطبق عليه، فهو تابو ممنوع للمس^(٣).

(١) بحسب الوثائق: لم تدخل مسلمة نهائياً قسم الحرملك، لأنه محرم عليهن/ للمزيد: سجلات المحكمة الشرعية،

إستانبول، وثيقة رقم ٢٣١٤، سجل رقم ٢٥٩.

(٢) آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، ص ٤٦.

(٣) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٢٦٧.

إن سلاطين بني عثمان تزوجوا للمتعة، وليس للإنجاب، ومن لا يرغب بالإنجاب، فلا استمرار لنسله، وإذا وُلد لهم من جواريتهم أولاداً ذكوراً عليهم الاعتراف بهم من جهة أو عدم الاعتراف، والعقلاء من اقتنع بولد، **لأن قانون الفاتح سينيحي حياته**، ولهذا فزواج سلاطين بني عثمان زواج متعة، فهو لا يسهم بتكوين عائلة بأولاد أو من دون أولاد، فهم اندفعوا للجري وراء غرائزهم الشهوانية، ضاربين بمن عاشرهن عرض الحائط، وتزوجوا بهنَّ رغبة أو رهبة، والحرملك لا يتعامل مع من يعيش فيه بإنسانية البتة، فللسلطان حق المعاشرة متى أراد ورغماً عنها، لكن لم تسجل لنا الوثائق الهمايونية أن جارية تمنعت، وإذا تمنعت يأمر بقطع رأسها وبحسب الوثائق، فهنَّ جننٌ لمثل ذلك^(١)، والداهية من تحظى بجمال متميز وتسعد السلطان بالمعاشرة والأسعد من ذلك أن تنجب غلاماً لتحظى بمرتبة باش قادين أي السيدة الأولى.

غلب على حياة القصور بعد معركة أنقرة (الماعز البيضاء) عام ١٤٠٢م تكاثر الجواري والمحظيات لدى السلطان الحاكم، غير أن الفترة التي سبقت بناء قصر الطوب قابي (باب المدفع) لم نعثر على وثائق، توضح لنا حياة الجواري والمحظيات، **لعدة أسباب:**

- ١- السلطان قائد للجيش، جاهل لمصيره.
 - ٢- محظيات القصر العثماني، كلهن أسرى بيزنطيات، وليس لهن جناح حرملك.
 - ٣- ليس لدى السلطان الحاكم، موارد مالية، فمحظياته لا تتجاوز أعدادهن العشر محظيات، فخزينته المالية سلب ونهب وغنائم وما شابهها^(٢).
- ليس من تشابه بعد فتحهم القسطنطينية وما بعد فتحها، فالحرملك مؤسسة فسق ودعارة حرة لا رقيب عليها ولا حسيب من جهة، ومؤسسة حكومية تدير شؤون الدولة من جهة أخرى، فقد ضم خلال مراحلها الأولى مئات المحظيات، وفي عهد القانوني تجاوزت أعدادهن الآلاف، لاسيما بعدما عُين موظف مختص يُسمى (آغا الكزلار) آغا البنات، ومهمته البحث عن أجمل فتاة في العالم، والوصول إليها خطفاً أو شراءً وإذا كانت فائقة الجمال، وتعلق السلطان بها قد يكون مهرها ضرائب مصر أو غيرها من الولايات^(٣).

(١) والحقيقة قلة منهن جنن للمتعة، وكثيرات منهن حُظفن، وكثيرات من أرسلن لأهداف تخدم بلدانهم أو قومياتهم.

(٢) اينالجيک، موارد المحاربين العثمانيين، المجلة التاريخية، إستانبول، ١٩٨٧م، ال عدد ٧٦، ص ٣٠.

(٣) أوغلو، خليل ساحلي، موارد الخزينة العامة، الأردن، ١٩٨٩م، ص ١٥٨.

لقد احتوى الحرمك على مئات الخدم والحشم، ناهيك عن الخصيان السود والبيض الذين كلفوا رسمياً بحراسة المحظيات، وبالتالي كانت مؤسسة الحرمك أشبه بحكومة، لها كوادرها الإدارية والتربوية والمالية ونفوذها مهيم على السلطان وعلى من يتردد إلى السراي، وفي عهد القانوني ومن خلفه امتد خارج القصر، وشمل معظم مرافق الدولة، ولاسيما عندما تنازل السلطان سليمان القانوني عن إدارة الدولة عام ١٥٣٥م، وسلم الخاتم للصدر الأعظم، وأجاز لزوجته روكسلانة (خُرْم) مشاركة الصدر الأعظم^(١).

إن انغماس السلاطين في دائرة الحرمك، أفقدهم هيبتهم لدى خدمهم وحشمهم قبل نسائهم ومحظياتهم اللواتي بدأن يتلاعبنَّ بهم، وتحول تواجدهم في قسم الحرمك إلى وضع يشبه الإقامة الجبرية ولا يسمح لهم الحضور في دائرة السلامك إلا في المناسبات الرسمية كاحتفال بعيد ميلاده، أو استقبال موفد أوروبي.

يعاقب بحسب شروط إحضار المحظيات، من يشتري أو يخطف محظية لا يتوفر فيها الجمال الكامل مثل البياض والقوام أو الخصر والأكتاف والنعوذ، والقدر الرشيق، وأن يكون جمالها متميزاً، وكلما تميزت بجمالها تحظى بولي العهد للزواج بها، لأن زوجة السلطان، تمارس نفوذها على المحظية فائقة الجمال كي لا يراها السلطان الحاكم ويطلبها لنفسه، كما فعل سليم الثاني عندما رأى بارليتا تخلص عن زوجته نوربانو رغم جمالها، لكنها ليست بجمال بارليتا التي أفقدته عقله، وحولته إلى دمية بيد بائع الخمر يوسف مندا ناسي^(٢).

يُخطىء من يتصور أن السراي الهمايوني مهمته المحظيات وشؤونهن، فهو الدولة وهو مؤسسة التعليم والتربية وحسن المعاملة، وتُدرس مدرسة الحرمك مختلف اللغات الأوروبية، وإذا كان فيها دار لتربية الغلمان الصغار، فلا شك إن الحرمك مؤسسة أجيال وتداول وتوجيه، فالخصيان وجدوا في المحظيات تعويضاً عن مأساتهم، وكثيراً من الخصيان البيض التقوا مع أخواتهم، وتبادلا الأحزان وبعض الخصيان ولاسيما البيض تمكّن بفضل المحظيات من ضمان عدم طردهن، ويكفي أن تشير مدلات السلطان لتتفد أوامرهن.

^(١) leshtie pierce, The Imperiah Harem hamayuni, paris,1968pp23

^(٢) العلي، نور، السلطان سليمان القانوني، رسالة ماجستير، دمشق، ٢٠٠٨م، ص ٥٦. يتحمل السلطان القانوني مسؤولية تحويل خلفائه إلى أسرى الحرم.

إنَّ المرضى وبقية العاملين بالسراي الهمايوني، يتداوون في جناح الحرمك، فالمحظيات معظمهن امتلكن خبرات متنوعة ومتعددة، وكن يتفقن المرضى داخل السراي وخارجه، وقد سمح لهنَّ السلطان القيام بالأعمال الخيرية، وبمراجعة دقيقة لتاريخ المحظيات اللواتي حققنَّ أهدافهن في منصب السلطانة الوالدة، نلاحظ أنهن وقفن بشدة أمام ظاهرة القتل، فوالدة محمد الفاتح هجرت قصرها احتجاجاً على قتل الفاتح لأخيه الرضيع وهو ابن ضررتها، وحاولت صافية زوجة محمد الثالث منع ابنها من دفن تسعة عشر أماً من إخوته بحفرة والده، ولكنه أجاب: أماء إنه قانون، ومما يُذكر في سياق البحث أن اليهوديات اللواتي صممن على قتل منافسي أبنائهن، وحدهنَّ عمدنَّ إلى تشجيع القتل والاعتقالات (تشجيع التخلص ممن يعيق مشاريعهن)^(١).

كما تتكفل دائرة الحرمك بتعليم الوافدات الجدد اللغة العثمانية أولاً، ثم أصول تأدية التحية لوالدة السلطانة، وكيفية الانحناء لها، وكيفية التقدم لتقبيل يدها عدة مرات، وكيفية الانسحاب من ضررتها، فإذا نالت إعجابها تتقدم وصيفتها لفحصها فحصاً دقيقاً من رأسها حتى أخمص قدميها، وتقاس أصابعها وراحة كفها وأسنانها وأضراسها، وأي خلل تطردها من السراي فوراً، أما بشأن تهيتها، فمؤسسة الحرمك، مسؤولة عن ذلك، أما ساعة عرض المحظيات على السلطان، فالسلطانة الوالدة، تأمر الوصيفات بالمشي أمام السلطان عدة مرات، ليختار واحدة منهنَّ، وحالما يشير بإصبعه، تُسارع السلطانة الوالدة لتشرف على تجهيزها، وسعيدة الحظ من يقع اختيار السلطان عليها، وإذا أعجبته، يصطحبها إلى جناحه الخاص لأيام وأشهر، وحالما يسأم منها، يمنحها الكثير من المال والمجوهرات، وإذا غضب منها، فالأمر له، إمّا أن يطردها أو يزوجهَا لكبار قاداته، وأما يكلف السيّاف من الخصيان بجز رأسها على مرأى من جميع المحظيات للعبوة.

لم تفدنا الوثائق أنّه تمَّ قطع رأس محظية بدافع ممانعة السلطان، ومن الأسباب التي تؤدي إلى قطع رأس المحظية محدودة مثلاً: الخيانة مع عبد لم تتم رجولته، أو إقامة المحظية علاقات مع بعض مسؤولي السراي، وهذا لم يحدث، لأن معظم المؤرخين لم يشيروا إلى ذلك.^(٢)

(١) التلمود، سفر ٤٠، (الله خلق اليهود ليحكموا العالم).

(٢) بحسب نظام الحرمك، المحظية سلعة، ولا يستطيع لا أهلها ولا دولتها المطالبة بها، وفور دخولها السراي يُبدل اسمها، وتتخذ هويتها منها وتُحرق، فموطنها الحرمك، ولا تجاهر بجنسيتها إلا إذا أصبحت الوالدة السلطانة، فتظهر تعاطفاً مع أهل بلدها/ للمزيد: أوزون، التاريخ العثماني، ص ٣٥٨.

يحق للسلطان الحاكم أن يعاشر ما يشاء ومتى شاء، فهذه مملكته وتلك الجواري جواريه لوحده، ولا يحق حتى لولي عهده ولا غيره كائن من كان الدخول نهائياً إلى الحرم، وعلى الوالدة أن تختار المحظية التي تروق له وتعجبه، وتتحرى الدقة بالمحظية التي تنتقيها له من حيث الموصفات، وهذا ما تخافه أمه، أن يغضب من المحظية في أثناء المعاشرة، عندها غالباً يقطع رأسها ويُرْمى في البحر^(١)، (وقد يستبدل والدته ويكلف كتحدا الحرمك بمهمة الانتقاء) وإن أبقاها للصباح، فيوزع البخشيش، على المحظيات حيث تُسرع المحظيات للمباركة وتقيل يديه، وتغزو المحظية موضع حسد من زميلاتها لا يقتصر دور الحرمك على تدريب وتربية المحظيات، فتربية أطفال الدفشمه، والإشراف على نظافتهم ورعايتهم قبل عام العاشرة خوفاً من إفساد رجولتهم مما يؤثر تأثيراً على تربيتهم عسكرياً، وكذلك تدريب الخصيان على التعامل مع المحظيات، تُرسل بعض الوصيفات قبل دخولهم إلى الحرمك للتأكد من فقدانهم الرجولة، وقلة من هؤلاء الخصيان ينجو من الفحص، ولكن إذا كُشف أمره وكان يملك شيئاً من الرجولة، يُجزر رأسه بالسيف أو يُعدم خنقاً بالخيط أمام الجميع، وتُرْمى جثته في المضيق، لأنه يُعد خائناً للسلطان^(٢).

صحيح أن المحظيات يداعبنّ لحيه السلطان الحاكم لا لجماله، وإنما للحصول على أموال خزائنه التي يُصعب تقدير محتوياتها من الذهب والفضة، لكن وبالوقت نفسه، لم يقف السلطان حجرة عثرة في وجوه المحظيات، فمعظمهن يمتلكن خبرات واسعة في مساعدة المرضى والجرحى فقد أدوا أعمالاً خيرية، عدا عن تربية الأطفال، فقد اعتنوا بالخصيان السود، ومما زادهن عطفاً على الآخرين، العنف الذي مورس عليهن بسبب ومن دون سبب، فهم لم يُخلقوا للقتل وجز الرؤوس، فإن قلوبهن تخفق حزناً شديداً على الأطفال الذين جُمعوا بالقوة الجبرية، وعلى الخصيان الذين انتزعت رجولتهم منهم، وكان تعامل المحظيات معهم بلطف ولين، الملفت للنظر ظلت مؤسسة الحرمك الخيرية لأكثر من قرن من الزمن ترعى الأطفال وترعى المحظيات اللواتي لم يبلغن سن الرشد، وعمدت المحظيات لرعايتهن،

(١) يفعل هذا لكي لا تتكرر ظاهرة التمتع، وليس لدينا وثيقة تؤكد أو تنفي، وحللنا ذلك بناء على صلاحياته في كل شيء..

(٢) هذا تحصيل حاصل، أليس السلطان تابو ممنوع للمس؟ ومهمة الحرمك، إيساعده / للمزيد: قانون نامه، محمد الفاتح، البند الثالث والعشرين، ص ٥٤.

وتدريبتهم، وأزلن الخوف منهم، وعمدنَّ في ظروف غامضة إلى تهريبهم، وإعادتهم إلى أهاليهم، وكلفهن هذا التصرف الكثير من المال والجهد.

ثامناً-نظام الحرملك:

صحيح أن الحرملك دائرة من دوائر السراي الهمايوني، لكن العثمانيين لم يكونوا على معرفة بإدارته كمؤسسة، وبتزايد محظياته يوماً بعد يوم أرغموا على إيجاد نظام منسجم مع مقومات الحرم الهمايوني، وأجمع المؤرخون على أن دائرة الحرملك هي أكثر دوائر سراي الطوب قابي إسهاماً في تدهور الدولة العثمانية وتقويض دعائمها، يقول خليل غانم نقلاً عن بيهم (ليس بين العوامل جميعها التي أفضت إلى تدهور السلطنة، عامل يضاهي تأثير الحرم مباشرة وتأثير السراي السلطانية في تقرير هذا المصير)^(١)، أما جودت فيضيف أن العثمانيين لم يتعلموا عبرة وحكمة من هزيمتهم أمام تيمورلنك أبشع من إقلاعهم عن الزواج بالحرائر، هذا الزواج غير المنظم الذي أسهم في إفساد الدم العثماني، كما أسفر عن إنجاب أبناء لا يحملون من العثمانية إلا الاسم^(٢).

ويضيف قفلجمللي لقد تناسى السلاطين العثمانيون أن الباديشاه تعني فعلياً الدولة، وأن زواجهم القائم على الغريزة، ولّد مع مرور الأيام وجود سلاطين (باديشاهات) مساكين حُرّموا من جميع حقوقهم الإنسانية (بعدما انغمسوا كلياً فيما يسمى الحقوق الحيوانية). وأن هؤلاء السلاطين أُلقي بهم بين أشداق عجلة التاريخ بلحمهم وعظمهم، و حوصروا بديوان دأب على تحميلهم جميع المسؤوليات وسائر الجرائم، ولم يكتفِ بما حَمَلوه من أوزار، بل بالغوا في ألوهية الباديشاه، وأطلقوا عليه التابو (ممنوع للمس)، وأسهموا في انحراف مهمة الأندرون كمؤسسة بلاطية أو باديشاهية شخصية، لدرجة أنه تمكن مع مرور الزمن من كَيِّ رقاب السلاطين بعدما حولهم إلى دُمى بأيدي الجميلات من نساء الحرملك ولاسيما خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين وهنَّ كل سراي الطوب قابي، وما تبقى عبارة عن خدم مهمتهم تجميل السلطان وإعطائه المقويات الحيوانية^(٣).

(١) غانم، خليل، زواج الحكام، مركز الجهاد الليبي، الجماهيرية الليبية، ١٩٧٤م، ص ٥٦.

(٢) باشا، جودت، تاريخ جودت، ص ٣٢١.

(٣) قفلجمللي، التاريخ العثماني.....، ص ٢٢٩ وما بعد.

تواترت الروايات حول نظام الحرملك، والأصح من تلك الروايات، أن السلطان الخلف لم يحاول الإخلال بما أقره الأسلاف، وكل ما فعله خلفاء الفاتح، أنهم احتفظوا بنظرتهم للمحظية التي لا تساوي رغم جمالها وأنوثتها غضبة منه سواء هي التي أغضبه أو غيرها، وليس أسهل على السلطان من الإشارة بإصبعه، كعلامة على التخلص منها بعدما استهلكها جسدياً، وبموجب نظام الحرملك الذي أنشئ لراحة السلطان الحاكم، ليس لأية جارية أي حق من الحقوق، فهي إنسانة متعة، وليست إنسانة حقوق وواجبات، بما تحمل تلك العبارة من حقوق، وحتى واجباتها يقدرها السلطان أو لا يقدرها.

١-وضع المحظيات في الحرملك:

إن اعتماد نظام قاس، حول الحرملك إلى مؤسسة حكومية بامتياز، أو قرية صغيرة مستقلة عن بقية مؤسسات الدولة ودوائرها، يترأسها السلطان الحاكم بصورة عامة يعامل من فيها باحترام، لكنه احترام مرهون بحسن معاملة جواريه له، وبالاستناد إلى فرمان تنشئته، فإن الآداب واللياقة، أس من أسسه، ويجب على ساكنيه ألا ينظر أحد إلى ما لا يعنيه، وحين اقتراب أي ذكر (عدا الخصيان) على الجواري الاختباء فوراً، ولا يليق بهن تنبيه القادم لخطاهن^(١).

استنقل العثمانيون قديماً وحديثاً بشكل جنوني للانتساب إلى أوروبا، حاملين معهم تراث بيزنطة ومدعين، ومن دون خجل أنه تراثهم وثقافتهم، بدافع الخوف من نشوء أسرة تركية تتدخل بشؤون السراي، وتعلن تحديها للسلطان الحاكم، علماً أن النسل العثماني لأكثر من ستة قرون يأتي من جواري أوروبا والقوقاز اللاتي امتلأت بهن القصور العثمانية، غير أن هناك دراسات أن القبيلة حالما دخلت الأناضول وجاورت البيزنطيين أصاب قائدها هوس الانتساب إلى قياصرة بيزنطة، ويضيف المصدر أن رغبة السلاطين العثمانيين بالإصرار على الزواج بالبيزنطيات ليكسب شرف وراثة بيزنطة، ولم تكف الدراسات، بل أضافت، أن لفظة عثماني غير مرادفة للتركي والزوجات ليست تركيات ولا علاقة لهن ولا لغيرها من أمور أخرى.

ما إن استقرت دولة القبيلة في بورصة، فأدرنه، فالقسطنطينية، وتأسست السلطنة العثمانية حتى بدت التأثيرات الأوروبية تطغى على مؤسسات الدولة كافة، ولاسيما في الجهاز الحكومي والجيش

(١) رفيق، أحمد، صحايف مظفرات عثمانيات كتاب خانه، ص ٤٢.

وبشكل خاص القصر بسبب تأثير المحظيات الأوروبيات على أقسامه، ولأسيما مؤسسة الحرملك التي تراجعت فيها اللغة العثمانية تجاه اللغات الصربية واليونانية والألبانية والرومانية وانتفى شرط المحظية تعلم العثمانية، وكثرت المترجمات، وغدت مؤسسة ترجمة، وهذا ما زاد من هيمنة اللغات الأوروبية على اللغة العثمانية، وواقع الأمر فقد جمع الحرملك قوميات أوروبية ولغاتها وتراثها الثقافي والاجتماعي، لكن العثمانيين رفضوه بشدة وحينما عجزوا عن عثمنته، لفظوه بمختلف الوسائل، فالمحظية التي لا تجيد العثمانية عدوها غير مؤهلة للقاء السلطان، هذا التذبذب في القرارات والتوجيهات أكد الإرباك الإداري للسراي الهمايوني، ومما أرغم المحظيات على تعلم اللغة العثمانية إحجام السلطان الحاكم عن إجهاد نفسه بالتعلم، فمعظم السلاطين لا يعرفون اللغات الأوروبية، وهذا لا يعني أنهم ما حفظوا كلمة من الكلمات التي تردد صداها في أرجاء القصر كافة حتى الخدم أتقنوا أكثر من لغة أوروبية^(١).

٢- حياة المحظيات في الحرملك:

يقيم حريم السلطان العثماني داخل أجنحة الحريم التي تحيطها الأسوار العالية، يتناوب على حراستها حراس من الخصيان السود يحتفظون بمفاتيح الأبواب ليل نهار، وأجنحة الحريم العثماني التي تعد منطقة مغلقة أو منطقة محرمة لا يسمح السلطان العثماني لأحد بالدخول أو الاقتراب منها أو النظر لسكانها، لا يدخلها إلا رجل واحد هو السلطان، فضلاً عن الخصيان القائمين على الخدمة، وهم ليسوا برجال وإنما أشباه رجال^(٢).

ولدى قيام السلطان بزيارة لأجنحة الحريم تصحبه (الكايا) وهي من كبرى موظفات الحريم السلطاني ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التي يقضيها السلطان مع الحريم بالليل أو النهار، وكان يطلق على هذه الزيارات " خلوت همايون " أي الخلوة السلطانية " ولكي يتم الإعلام بوصول السلطان، ولهذا ترافقه الكايا وتتبعه المحظيات بالتأهب والاستعداد لاستقبال السلطان، وعليهن التزين بشكل كامل.

(١) الأب هايدو، المسيحية يئست مما قدمت للعثمانيين، مخطوط في مكتبة جامعة إستانبول، رقم ٤٥١٢، (وهو رجل

دين وقع في أسر بحارة المغرب العربي، وحينما أطلق سراحه، زار إستانبول ومات فيها بناء على يمين قطعه على نفسه) استقيت هذه المعلومات من الدكتور محمود عامر.

(٢) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٥٦٠-٥٦١.

وكان من قواعد البروتوكول العثماني في أجنحة الحريم، أن الحريم إذا فوجئت بوجود السلطان، فلا ينبغي لإحدهن أن تنتظر للسلطان، بل تغض بصرها وتنتظر للأرض خشية وحياء.

وكان السلطان يتزوج من الحرائر مثلى وثلاث ورباع، ويعاشر خلال جولته من الحرائر اللاتي لم يمسهن رق أو أسر، ويتزوجهن السلطان بعقود شرعية (زواج مؤقت) إذا كانت قوية الشخصية، ومعظمهن لا يفكرن بذلك، فبعقد ومن دون عقد، ما يريده السلطان يتم، وغالباً المطالبة بالعقد تثير حفيظته، يصبح حذراً من معاشرتها، فيتهرب، فتخسر لقاءه وبخشيشه.

إذا كان السلاطين الأوائل قد التزموا بالحد الأقصى في عدد الزوجات (حسب الشرع) إلا أنهم لم يلتزموا بشرط العدل بين الزوجات، فالبرتوكول العثماني كان يفضل الزوجة التي تلد ابناً على التي تلد بنتاً، وكانت مخصصات الأولى المالية أكثر من الأخرى، فضلاً عن التقدير الزائد الذي كانت تحصل عليه والددة ولي العهد وقد خصص لها جناح خاص بها في الحريم السلطاني، ولكل سلطنة حاشية خاصة بها، تضم وصيقات يقمن على خدمتها، وتضم الحاشية عدداً معيناً من الخصيان ورئيساً لهم يسمى "أغا الطواشية" أو "أغا الخصيان"، ويقوم فريق منهم بخدمة السلطنة أي الزوجة ويقوم الفريق الآخر بحراسة الجناح والطرق الموصلة إليه، وكان عدد الحراس أربعين، أما الأغا فيتلقى أوامر السلطنة وينقلها إلى السلطان نفسه، إذا كانت السلطنة أم ولي العهد أو التي أنجبت ولداً، أو ينقلها إلى الصدر الأعظم.

وكان الحريم السلطاني يموج بأعداد وفيرة من الجواري الحسان ويتم تأمينهن:

أ- الشراء من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية، قد اشتعلت ويشترون السيدات والفتيات الأسيرات ويحملونهن إلى الدولة العثمانية، وكان أمين جمرك الأستانة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة^(١).

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها، ص ٥٦٢-٥٦٨-٥٦٩

ب-يعد تجار الرقيق في أوروبا وآسيا على خطف الفتيات من اليونان وإيطاليا وألبانيا والنمسا وروسيا والقرم، وكان أكثرية تجار الرقيق من بلاد القوقاز، لذلك كانت أغلبية الفتيات الرقيقات من تلك النواحي واشتهرن بجمالهن المفرط.

ج- الهدايا هي المورد الأخير للجواري إمّا من الصدر الأعظم، الملزم بحسب القانون أن يقدم للسلطان الحاكم، أجمل فتاة في العالم في عيد ميلاده في كل عام، وإن لم يستطع، يعزله السلطان، ولهذا كان الصدر الأعظم يرسل عيونه إلى مناطق أوروبا لشراء أو خطف أجمل الفتيات، ويحتفظ بها بين محظياته، ويكلفهن بالاهتمام بها وخدمتها، وكان للصدر الأعظم في قصره (باب عالي) ما يزيد عن أربعين محظية، وأكثر ما يسعد السلطان أن يقدم له الصدر الأعظم محظية لامثيل لها كهدية، تخوفاً من أن يشتغل السلطان بهوموم الإدارة ومتاعب الولايات، وكانت من مهام آغا الكزلار (آغا البنات) أيضاً إحضار أجمل الفتيات، (يقدمهن له كبار موظفي الدولة أو حكام بعض ولايات الأناضول والروملي)، فينال مكافأة من السلطان (تعادل راتب مدرس في المدارس أجر سنوات)، ناهيك عن سطوته في بيع وشراء المناصب الثانوية^(١).

وعلمت الباحثة التونسية وفاء الإدريسي في مؤلفها: (نسل الجواري أضاع النسل العثماني وأضافت، أنهم أسرفوا في أعمالهم كافة من قتل وإعدام وتهجير وضرائب، عدا عن إسرافهم في الحرملك ومصائبه وشروبه صحيح أن ولاية الأمر من الملوك والحكام والقادة الكبار ومن ثم التجار اقتنوا الكثير من الجواري، بهدف تأدية خدمات منزلية بالنسبة للإناث، وجر العربات وحمل الأثقال والعمل بالمزارع والحدائق الخاصة بمنزلهم بالنسبة للرجال، سابقاً كانت الجواري والعبيد يباعون في أسواق النخاسة، ويحتال أسيادهم بتغيير أسماء عبيدهم وجواريهم، ويعلمهم لغته، ويقدم لهم التنشئة، والإكساء والتدريب على السلوك، يقابله ضرب وجلد وكَيّ بالنار، وهذا بالطبع عائد لمزاج السيد.

لقد صورت وفاء الإدريسي وضع الجواري والغلمان بدقة متناهية، وصوّرت الحرملك العثماني بكل تفاصيله، وعرّجت في كتابها على الناحية الجنسية، لكن السراي الهمايوني، ليس قتلاً وإعداماً

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٥٨٥.

فالسلاطين العثمانيون لم يكونوا بمستوى واحد من القساوة والدموية ففيهم الخلقون و أصحاب القلوب المرهفة كالسلطان سليم الثاني.

ولئن اضطلعت الجواري والغلمان بأدوار اجتماعية متعددة، فإنّ فئة منهم خصصت لإمتاع السيد والترفيه عنه في عصور تنوّعت فيها المجالس واحتاجت لعدد كبير من الجواري والغلمان لتأثيرها. فبرز منهم المغنّون والمغنيّات، والشعراء والشاعرات، والأدباء والأديبات وغيرهم ممّن خلّد التاريخ أسماءهم، فلم يكن هناك بدّ من تثقيفهم وتعليمهم وتكوينهم تكويناً خاصاً يجعلهم يتحوّلون من متعلّمين إلى منتجين أو إلى مواضيع قصائد عديدة^(١).

٣- تحكم المحظيات بشؤون الدولة:

يشير تعبير سلطنة الحريم إلى التأثير القوي لجناح النساء في قصر السلطان العثماني وتدخلهن في أمور الدولة التي حكمت جزءاً كبيراً من العالم، وقد استخدم العثمانيون مصطلح "قاديّنلر سلطّانتي" أي "سلطنة النساء" للإشارة إلى ممارستهن لأدوارٍ سلطانية، أما المقابل العربي "سلطنة الحريم" فيبقى على الكلمة التي فهمت خلال الحقبة العثمانية للدلالة على الجناح الضخم أو ما يسمى بالحرملك الملحق بقصر السلطان العثماني، الذي يضم والدته وزوجاته وجواريه، وأفراد عائلته من النساء العازبات قبل وصولهن للقسطنطينية، وبعضهم يؤكد أنه استمر حتى بداية تولي سليم الأول العرش، حيث أمر بإسكان زوجته وأولاده ووالدته في قصر خارج قصر الطوب قابي، فضلاً عن الخدم والموظفين من الجنسين المعيّنين للاهتمام بالجناح وأعضائه، وتعد سلطنة الحريم جزءاً من مفهوم فلسفة الحرملك الأوسع، الذي يشير إلى تلك النخبة التي تستغل قربها من الحاكم (السلطان أو الملك أو الإمبراطور) للتدخل بصورة خفية في شؤون الدولة دون أن يكون لها مناصب فيها^(٢).

مارس أعضاء جناح الحريم المرتبط إدارياً بالسراي الهمايوني على مدار مئة وثلاثين عاماً، ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، أدواراً أثرت في مسار الدولة، وجاء ذلك على نحو خاص، إمّا من أمهات السلاطين أو زوجاتهم وشهد القرن السادس عشر بما يتزامن مع آخر سنوات السلطان

(١) الادريسي، الجواري والغلمان مؤمنون بلا حدود، ص ٣٠-٥٦.

(٢) دكاك، حسن أحمد، وقفة حول السراي في الدولة العثمانية، دار المنتخب، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٥٦-٥٩٨.

سليمان القانوني بروز سطورة "الحريم" وانسحاب السلطان من جلسات الديوان، وتعد السلطنة **حفصة** والدة القانوني واحدة من النساء العثمانيات اللاتي شاركن أبناءهن في إدارة أمور "الدولة العلية"^(١) وكانت أول من حملت لقب السلطنة الوالدة، وأعقب غيابها عن البلاط العثماني سلسلة من الأحداث، انتهت إلى إعدام السلطان لأكبر أبنائه مصطفى وكذلك إعدام الصدر الأعظم القوي إبراهيم باشا، زوج شقيقة السلطان، وبحسب حسين مؤنس بتدبير من محظيته روكسلانة التي شغلت نصف قرن، وعمقت ظاهرة الفساد بمن خلفها محظيات، وما تم رُسُمت قاعدته التخريبية على يد الجارية روكسلانة التي توفيت عام ١٥٥٨م، وبعدها بنماني سنوات توفي السلطان سليمان، ولمس مأساته ومأساة دولته وكيف قتل أولاده بيديه، لانسياقه خلف جارية، انتقتها له أمه اليهودية (هلغه)، وبعدها أنجبت السلطان سليم الأول سماها حفصة^(٢).

ومن هذه الدراسة تقرأ دور الحرم، والدول التي تدير شؤونها سرّاً دون معرفة السلاطين، ويُقرأ أيضاً أن هؤلاء المحظيات لم يأتين خطفاً، كما تذكر المصادر الأوروبية، وهل يُعقل أن تُخطف فتاة من وسط الفاتيكان أو فرنسا (باريس)، إنه أمر مشكوك به، ففي تلك المرحلة لم يكن المخدر موجوداً لتخدير الفتاة التي ستُخطف!

إن قراءة هادئة تُوضح لنا دور تلك النسوة في ترهل الدولة واتصالاتهن السرية بقناصل الدول، ففي عام ١٥٨٦م ضُبطت محظية تتردد على القنصلية الفرنسية، فألقي القبض عليها، وتبين أنها مأجورة لصالح القنصلية الفرنسية مهمتها تقديم دراسة عن الحرمك، وتولت زوجة مراد الثالث صافية التحقيق معها بنفسها، وفي احتدام الصراع ما بين الأخوة من جهة، وما بين نساء السلطان من جهة أخرى، أُيعقل أن السلطان سليمان تحضه زوجته روكسلانة للذهاب إلى بستان لقطف الورود (هل ماتت أنوثتها) وهي ليست من عادة النساء أن يفعلن ذلك، وهل يعقل أن تقوم نوريانو زوجة السلطان سليم الثاني بتكليف جماعة لإحضار أجمل فتاة في العالم ليتعلق بها السلطان سليم زوجها، بدلاً من بديعة

(١) فيردون، أسرار السراي وخفاياه، إستانبول، ١٢٩٨هـ، ص ١٥٦.

(٢) أفاد جودت ولطفي في مؤلفاتهما أن تخريب الدولة رُسم فعلياً، عندما رحب السلطان بايزيد الثاني باليهود ولجأته، اتهم الملك الإسباني الذي هجر اليهود أنه خرب بلاده وعمر دولة بايزيد/ للمزيد: جودت، تاريخ جودت، ج ٤، ص ٣٩٨.

الجارية الإيطالية التي أهدتها له أخته مهرماه عندما كان في زيارتها، حينما كان الأسطول متجهاً لفتح قبرص عام ١٥٧٠م، إن ما فعلته بديعة (بارليتا) بالسلطان سليم الثاني يحتاج إلى مجلدات لتغطيته، لقد غاب نهائياً عن الحكم ولا يعرف شيئاً عن زوجه اليهودية التي تدير أمور الدولة، يا ترى ! امرأة يهودية تعمل لغير صالح اليهود أبناء جلدتها، أليس في الأمر سرٌّ؟ هذا غيظ من فيض من جارية واحدة إذا تجاهلنا (روكسلانة-صافية-كوسم-ماهيكر كوسم-هاندان) وآلاف مؤلفة. ^(١)!

تاسعاً- دور المحظيات في تفكك الأسرة العثمانية:

١- تنافر الأسرة:

يُحْمَلُ معظم المؤرخين السلاطين العثمانيين، مسؤولية، فتح قصورهم للجواري الأوروبيات، مما تسبب في خلق تنافس بُني على أساس ليس الوصول لمنصب الوالدة السلطنة، بل تجاوز التنافس حدوده وتحوّل إلى حقد تُسحق العظام فيه، وشبهه البعض بالإبادة، فكلبهار الزوجة الأولى للسلطان سليمان، لا تعرف زوجته الثانية روكسلانة، والتنافر والخلاف فيما بينهما ليس على تولي العرش فقط، بل للوصول إلى إدارة الدولة، وتحييد السلطان سليمان جانباً، وهو تنافس مصالح، لأمجال للتهاون واقتتال حاد، قلما عرف التاريخ له مثيلاً، فلقد اتهمت روكسلانة كلبهار بحرق قصرها، وكلبهار لا تعلم أين قصر روكسلانة، والتنافر الذي دار ما بين ابنة السلطان سليمان مهرماه أخت السلطان سليم الثاني وزوجته نوريانو على صنع القرار والكلمة العليا، أشد من أية حرب شهدت النساء، انتهى بدسم السم لمهرماه، واستولت نوريانو على قصرها وجواريها وأموالها التي لا تُقدر، وانتقل التنافس الأسود إلى صافية ومنافستها نوريانو، فعمدت صافية إلى دس السم لها، ولم يعلم ولدها مراد الثالث بأن والدته نوريانو ظلت لساعات تتجرع السم وبعدها ماتت وهو في الحرم، لا يعلم شيئاً حتى أخبروه بوفاة والدته، وغدت صافية زوجة مراد الثالث سيدة السراي الهمايوني ^(٢).

يأسف الكاتب والقارئ على هذه الإمبراطورية بلباس سلطنة، أن مآسيها ثمان وخمسون ولاية، دفع سكان تلك الولايات آهات ممزوجة بدم زعرانها ولصوصها، وفجور محظياتها، والمؤسف أن أوروبة

(١) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٥٩٤.

(٢) عامر، الماسونية ويهود الدونمه، دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٢م، ص ١٢٢.

التي دفعت بجمالياتها لهدم القلعة العثمانية، ولأكثر من أربعة قرون، والخصيان يجزون برقاب تلك الجميلات، ولم تجرؤ أوروبة بعظمتها وتقانتها الحربية وحداثة تنظيماتها العسكرية من الاقتراب إلا بعد أن أقنعت السلطان محمود الثاني ابن الفرنسية بإبادة بعبوع أوروبة (الإنكشارية) عام ١٨٢٦م^(١).

٢- غياب السلاطين:

لا تعرف القبائل نهائياً وقوف النساء في استقبال الضيوف، ولا ترك الإدارة لهم، والعثمانيون الذين هجروا موطنهم وتحركوا شرقاً، بلغوا الأناضول، ووجدوا أن صراعاً ما بين المسلمين وحكام بيزنطة بين أخذ ورد، وكان الصراع صراع حدود وليس صراعاً دينياً، كما يشير المتعصبون المسلمون، بغية منح العثمانيين بطاقة مجاهدين وهوية إسلامية، دفع العرب ثمن هذه المكرمة للعثمانيين، وبتكاسل قياصرة بيزنطة، انتصر العثمانيون، وتمكنوا من إزالتهم من التاريخ، وتصرفوا بأرضهم وناسهم، وعدوا ما استملكوه ملكهم، سلب منهم فاستردوه من المغتصبين. يُعدّ السلطان سليمان القانوني، هو من فتح باب غياب السلاطين في قسم الحرملك، ليسبح وأبناؤه في بحر اللهو والمجون، فلقد تخلوا عن قيادة الجيوش، فتخليهم أفسد الانكشارية، لأنها لا تدافع عن وطن ولا دين ولا قومية، وبحسب تربيتهم (الدين والوطن والقومية) تجسّدوا بالسلطان، وبحسب ما رواه لافاليه بمناسبة الحرب التي افتعلها السلطان سليم الأول مع شاه الصفويين قال: (كان الجيش العثماني كثير التأفف والتذمر من هذه الحرب القاسية، وتمرد قسم منه، ولم يلحق بالحملة، ثم ازدادت الحالة سوءاً، حينما تجرأت الانكشارية على طلب الرجوع إلى ثكناتهم، ولكن ما إن برز السلطان أمامهم، وطفق يؤنبهم ويقول لهم: على الجبناء أن ينفصلوا عن أصحاب القلوب الكبيرة الذين أعدوا أنفسهم لقتال الأعداء، وما كاد السلطان يقول حتى ارتد الحماس والنشاط إلى الجيش كله، وزحف شطر تبريز وحقق انتصاره على الشاه في وقعة جالديران عام ١٥١٤م)^(٢).

إذا كان السلطان سليم على رأس الجيش، ويصور لهم أن الصفويين أعداء وأصابهم اليأس! فما حال الإنكشارية وهي تأتمر بإمرة إنكشاري مثلهم؟ لا ينحدر من القبيلة التي أسسها عثمان المؤسس، وسلطانهم غارق في بحر اللهو، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل وجدوا الصدر الأعظم يتلقى أوامره

(١) أوغلي، الدولة العثمانية، ص ٩٧.

(٢) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص ٢٣.

من أنثى، ولم يبقَ للسلطين ما يفعلونه إلا تسليم لحاهم لجميلات أوروبية لتمشيطها وإزالة الشيب منها، خوفاً من أن يחדش الشيب نهودهن^(١)

عاشراً- دور الخصيان اجتماعياً:

أطلق مصطلح الخصي على من فقدَ رجولته بفعل فاعل، والخصيان: جمع خصيٍّ، وخصيٍّ: مخصيٍّ، الذي سُلِّتَ خصيتاه أو نزعتا، وكان العثمانيون يشترون العبيد الخصيان من خارج حدود الدولة حيث تكون عملية الإخصاء قد أجريت للعبد في صغره ليتم بيعه في سوق النخاسة إلى الملوك والأمراء، حيث كان إخصاء العبيد وبيعهم للخدمة في قصور ملوك الدول المختلفة تجارة رائجة في القصور القديمة والوسطى وشطر من العصور الحديثة، وقد تحمل معظم الخصيان العثمانيين الإخصاء على أيدي الأقباط في دير أبو جربة في جبل غيبيل إتر في مصر ويتم القبض على الأولاد من منطقة البحيرات الكبرى الأفريقية ومناطق أخرى في السودان مثل دارفور وكردفان ثم بيعهم للعملاء في مصر.

وكان هناك طائفتان من الخصيان، السود: وهم المخصيون خصاءً كاملاً. والبيض: وهم المخصيون خصاءً جزئياً، ويتم الحصول عليهم من مناطق القوقاز والبلقان، ووضعت الدولة أنظمة خاصة تطبق على خدمتهم في القصور السلطانية، وقام تنافس شديد بين هذين النوعين كان مرده إلى رغبة كل فريق الإستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور، وفي شؤون الدولة وقد ارتفع مقام رئيس الخصيان السود نتيجة اتصاله المباشر بالسلطان ووصل إلى المركز الثالث من حيث الأهمية بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام^(٢).

(١) أوزون، تشكيلات الدولة العثمانية، ص ٢٤٥.

(٢) كان الرجل القبطي يقيد الأولاد بالسلاسل على طاولات وبعد تشريح أعضاءهم التناسلية تمسك أوراق شجر البامبو في المنطقة التناسلية ثم يتم غمرهم بالرمال حتى أعناقهم، والخصي الناتج عن هذه العملية يجلب أرباحاً كبيرة/ للمزيد: شعبان، إبراهيم، ستة قرون إرهاب إخصاء وحريم، مقال نشر في مجلة صدى البلد، رئيس التحرير: أحمد صبري، لبنان، السبت/ ٧ سبتمبر/ ٢٠١٩م، ص ٨٣.

يرد معظم الباحثين أن سبب البدء بالاختصاص هو (ارتكاب الزنا، أو كعقوبة للسارق أو للخونة السياسيين مما تعاونوا مع أعداء حكامهم، والبعض طالب بإجراء عملية الخصى طلباً للعفة).

لم يكن بمقدور بعض أصحاب السلطة والنفوذ أن يأتمنوا على نسائهم إلا من انتزعت خصيتاه منه، وهناك خصي آخر يُسمى الم محبوب، وهو من أبقى خصيتاه، وأقطع منه العضو الذكري، ولم تفدنا أن أية جهة رسمية أن هذا الجانب أعتمد أي قطع العضو الذكري، لأن هذا النوع من الاختصاص تكون الذكورية فيه قوية جداً قد يلجأ صاحبه إلى قتل الأنثى التي تقع في طريقه،^(١) أما دور الخصيان الاجتماعي، فهم ممرضات القصور يخدمون دون المطالبة بالأجر، لأنه ليس لهم أي مستقبل، كما أنهم فقدوا إنسانيتهم، وما يختزنونه في صدورهم من ألم نفسي، يعادل بحار الكرة الأرضية وتذكر المصادر أن صفية زوج مراد الثالث كانت تعطف عليهم، لأنها كانت ترى في عيونهم الدموع، فعرضت على رئيس الخصيان مغادرة القصر، فأجابها لا أريد الخروج ليس لي وطن ولا أمل لي بالحياة وبدأ بالبكاء، فبكت معه ولحاله^(٢).

(١) عبد السلام، أدهم، الخصى عند المصريين القدماء، الاسكندرية، ١٩٧٦م، ص ٢٣٤.

(٢) الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ص ٦٦٦.

-استنتاج الفصل الثاني:

لقد أصبحت الدولة التي أقامها أورخان قدارة على إرغام من حولها على الخضوع لمشيئتها، وأعدت قواتها ونظمت شؤونها ومؤسساتها، ولاحقت خصومها حتى في المناطق البعيدة وعلى مدار قرن من الزمن غدت أكبر قوة في المنطقة تخوف العالم بأسره، بعدما سيطرت على مساحات كبيرة في ثلاث قارات هي أوروبا وآسيا وأفريقية من خلال عمليات عسكرية دلت على شجاعة مقاتليها وحكمة قادتها وخاصة بعدما أقام مراد الأول نظاماً يقضي بجمع الشبان المسيحيين من المناطق الأوروبية الشرقية، من حين لآخر، وبأقل من نصف قرن كان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م قد أخضع معظم مناطق الوطن العربي وخلفه ابنه سليمان القانوني الذي حقق توسعات أرضية بلغت ١٩٠١ر ١٩ كم ٢ وتوافد على عتبته الهمايونية ملوك أوروبا وأمراؤها طالبين وده، ولم يكتف سليمان القانوني بالانتصارات الأرضية بل عمد إلى الاقتداء بجده محمد الفاتح في إصدار قوانين تنظم شؤون الدولة التي تحولت إلى إمبراطورية، كما رسخ مبادئ القوانين والأنظمة وكانت إمبراطوريته بقوانينها وأنظمتها تفوق العالم آنذاك وبخاصة في الناحية العسكرية، وعد الأتراك أعظم قادة من ناحية وضع أنظمة عسكرية، غير أن هذه التوسعات دفعت بعض السلاطين إلى التواكل وترك مقدرات شؤون دولتهم إلى الإداريين لديه وخاصة الصدر الأعظم الذي حل محل السلطان في إدارة البلاد وقيادة الجيوش.

لقد تعددت مهام ولاية الأمر في الدولة لدرجة أن بعض الخدمة ومعلمي السلاطين تولوا مناصب مهمة، بعضهم أصبح صدراً أعظم فباع واشترى بمشورة من والده السلطان أو زوجه، وغدا الوزراء يخططون للجيوش، في حين كان قادة تلك الجيوش في لهو ومرح لدرجة أنهم انسحبوا من ساحات القتال وأرغموا السلاطين على توقيع معاهدات الإذعان التي تنازلوا بموجبها عن أراضي دفع آباؤهم حياتهم ثمناً في سبيل السيطرة عليها، وانتشر الفساد والرشوة والتكاسل. فضاعت الصلاحيات وكثر الوعاظ، وضعفت الدولة لدرجة اتفق جيرانها على تسميتها بالرجل المريض، لكن هذا المريض وإن حاول استعادة عافيته، فإن أوروبا لن تنسى يوم دك الفاتح أبواب القسطنطينية وانتزعها بقوة مستفيداً من الخلاف الناشب ما بين الكنيسة الشرقية والغربية.

لقد عمدت أوروبا بعد تخلصها من مشكلاتها إلى مراقبة الدولة العثمانية خشية استفاقتها من جديد، فعندما لجأ بعض السلاطين إلى الإصلاح رفضته أوروبا وحددته بما يناسب مصالحها. كما سلطت

عليه الحرس القديم الذي وقف بقوة محتجاً على هذه الحركة الإصلاحية بحجة تهديدها للمبادئ الدينية وتعارضها مع وصايا المؤسسين.

إرهاصات عدّة تعرّضت لها الدولة العثمانية، فكما قال الأتراك إذا فسد رأس السمكة فموتها ضروري، وواقع الأمر فإن رأس السمكة فسد وكان لابد من تنظيم الدولة على مبادئ وأنظمة تتناسب والعصر الحديث وتطوره، لكن المجتمع العثماني الذي رفض الاختلاط بالغير قبل التطور، وقبل الطرف الآخر في حين قاومت المؤسسة العسكرية أي إصلاح، فكان لابد من استخدام القوة لتحقيق ذلك، وفعلاً تمّ ذلك على يد السلطان محمود الثاني عام ١٨٢٦م فانتقلت الدولة من أنظمة الأعراف إلى مرحلة القوانين والدساتير الناطمة لشؤون الدولة، وبمرور الزمن أصبح السلطان أشبه بمراقب لسير البلاد بدلاً من كونه قابضاً على السلطات كلها.

الفصل الثالث

الزواج من الأجنيبيات وتأثيراته على بلاد الشام

أولاً-التزايد اليهودي في الدولة العثمانية.

ثانياً-مصرفات السراي الهمايوني:

١-بذخ السلاطين وتبذيرهم.

٢-مطبخ السراي الهمايوني.

ثالثاً-أوضاع ولايات بلاد الشام في القرن السادس عشر:

١-الولاية في ولايات بلاد الشام.

٢-الضرائب المفروضة على ولايات بلاد الشام.

رابعاً-الأعمال الخيرية لمحظيات القرن السادس عشر.

استنتاج الفصل الثالث.

يذكر لطفي باشا في مطالعته، أن الكتاب بالغوا كثيراً بذكورية السلاطين العثمانيين، وإن الكتاب والمؤرخين استندوا في أحكامهم على روايات شفوية لا تمت للعلم بصلة، والبعض منهم عدّ تزايد المحظيات في السراي الهمايوني قسم الحرملك دليلاً على تعلق السلاطين بالنساء، علماً أن تواجد المحظيات لم يكن بناء على رغبة السلطان الحاكم، ولا حباً بمجالستهن مجالسة العاشق الولهان، بقدر ما هو شعور بأن عرش بني عثمان كان أكثر شموخاً وأكبر اتساعاً وعلواً من إيوانات أكاسرة الفرس وعزّ على العثمانيين ألا يتولّوا الريادة في اقتناء المحظيات أسوةً بتفوقهم عليهم، وعلى غيرهم في مجالات عدّة، فلقد مدوا سلطانهم على ثلاث قارات والروايات التي تحكي عن ظلم السلاطين للمحظيات مختلفة، فالسلاطين فتحوا أبواب قصورهم للمحظيات وأباحوا لهنّ الخروج منها، وإذا كان السلطان عاشقاً قد يُكرّم معشوقته بإهدائها إيراد ولاية، (كما فعل السلطان إبراهيم الأول)، وإذا أنجبت له غلاماً فيمنحها لقب السلطنة الوالدة، ويترك لها إدارة القصر عن طيب خاطر، هذا المنصب لوحده دفع مئات المحظيات لمعاشرة السلطان الحاكم، وإنجاب غلامٍ منه ^(١)، وللعلم فقد شاعت أخبار إكرام السلاطين لمحظياتهم، وهذا بدوره أسهم في تزايد المحظيات، والقدوم إلى إستانبول، ولاشك أن بعض الدول والحكام والأمراء الأوروبيين أسهموا بإرسال جميلاتهم إلى إستانبول لأسباب سياسية، حتى الكتاب الأوروبيين سرّهم معرفة أخبار تلك القصور العثمانية، ونسجوا قصصاً وروايات بعضها قارب الحقيقة وبعضها جانبها مبالغاً أو آسفاً على فتيات بعمر الورود شرّداً أو قُطعت رؤوسهنّ، ولم تهدم الدولة من داخلها، بل استغلّت فرنسا وبريطانيا الامتيازات التي منحها القانوني لهما، وافتتحو شركات وبيوتاً في تلك الولايات، والدولة العثمانية غضت الطرف حُباً بحصول الأهالي على تحسّن في أوضاعهم ^(٢) لاشك أن ما ذكره لطفي فيه حيّز من الصحة، لكن دفاعه عن بعض السلاطين أو أن المحظيات لم يتعرضنّ للظلم فهذه مكابرة ليست في محلها، فعشرات من المحظيات قُطعت رؤوسهنّ بشهادة الجارية

(١) السلاطين والملوك لا يلتقون مع أبنائهم بسبب مشاغل السلطة، ولهذا فإن أولياء العهد يدارون من قبل أمهاتهم، وأولياء العهد العثماني يعلمون تماماً أن والدتهم التي أوصلته للعرش وليس والدهم (الطالبة)

(٢) باشا، لطفي، مطالعة لطفي، ص ٢٣٩-١٢-١٦ (مطالعة قدمها لطفي باشا للقنصلية الفرنسية، وتمت ترجمتها بتصرف من قبل الدكتور محمود عامر، قدمها لي مترجمة).

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م
روكسلانة والمحظيات التي بقرت بطونهن وما فعله سليم الأول بنساء إخوته وما فعله السلطان سليمان
القانوني بالشركسيات.....^(١).

أولاً-التزايد اليهودي في الدولة العثمانية:

يُخطئ من يتصور أن السلاطين يحملون العداوة ضد اليهود، وكأن السلاطين على معرفة بالعداوة التي يقيمها المسلمون ضد اليهود، وكراهيتهم للرسول العربي الكريم محمد(ص) أو للسيد عيسى بن مريم عليه السلام أو مدى كراهية اليهود لأنبياء الله عليهم السلام، لهذا لم يكونوا يقيمون وزناً لهذا الكلام والأصح لا يعلمون عن اليهود شيئاً، فالسلطان محمد الفاتح، كان قد سمح لمجموعة يهودية بعد فتح القسطنطينية بالإقامة في منطقة تسمى **خاص كوى**، وفي عام ١٤٧٨م سمح لهم بافتتاح محلات تجارية في إسطنبول، غير أن الأهالي قاموا في عام ١٤٨٠م بمهاجمة المحلات اليهودية وأجبروهم على إغلاقها، وبتولي بيازيد الثاني عرش السلطنة وتسارع الحاخامية اليهودية إلى تهنتته وتقديم الهدايا الفاخرة له ولزوجته، وتعهدهم بمدته بالأموال لإرضاء الانكشارية التي أوصلته إلى العرش، دفعه إلى المجاهرة بحمايتهم، فسمح لهم بفتح متاجرهم التي أغلقت في زمن والده، وفوق هذا وجّه الدعوة لليهود للقدوم إلى إمبراطوريته، عندما طردهم الملك الإسباني **فرديناند** من شبه الجزيرة الإيبيرية، فأعلن بيازيد ترحيبه بهم قائلاً: (عجباً ممّن يصف فرديناند بالذكاء، فبغبائه أغنى مملكتي وأفقر مملكته)، يقصد طرده لليهود ويعود السبب في ترحيبه بهم أيضاً إلى زوجته **البحر سلطان غول** والدة سليم الأول، فهي من أشارت عليه بدعوة اليهود، و شجعتة على حمايتهم والتهديد بمعاقبة من يزجج يهودياً، وفتح أبواب مختلف المدن العثمانية أمامهم، وبحسب المصادر فقد حولته زوجته من رجل عريد إلى رجل مسالم، وشجعت على السلم والترحيب بالملل كافة بدعوى أن نصف الدين له ومن مجلسه يحكمها، وتصرفها هذا كي لا تلفت أنظار المسلمين إلى اليهود الذين قدموا إلى أملاك العثمانيين.^(٢)

^(١) مؤلف مجهول، المحظية زاهية والسلطان عبد الحميد الثاني، بلغراد، ١٩٥٦م، ص ١٢-٢٠ (وللعلم توجد رواية بهذا

الاسم صادر عن دار الروائع في بيروت ١٩٦٨م).

^(٢) ismail hakki: osmanh tarihi ci sc94

إذا كانت زوجة السلطان بيازيد الثاني (الذي تزوج بعشرات النساء)، قد حوّلت بفعلتها السلطان بيازيد من سلطان عرييد إلى سلطان تقي ورع، فماذا سيقول البحث عن المحظيات اللواتي تزوجن كخليات بسلاطين امتازوا بالشجاعة والإقدام؟ ونخص بالذكر سليم الأول وسليمان القانوني ولاسيما أن السلطان سليم اعتمد على اليهود في مراقبة عرب مصر وبلاد الشام، واعتمد على التركمان والأكراد للحد من نفوذ العرب لصالح اتساع اليهود^(١).

وليس صحيحاً ما يقال إن سليم الأول أحب أن يغامر ويهاجم الصفويين، لولا تقرير أعدّه له اليهود الذين يعيشون في المناطق الصفوية آنذاك، يتضمن التقرير: سيكسب السلطان العثماني فوائد مالية ضخمة، إذا هاجم الشاه إسماعيل الصفوي، وفعلاً ففي أثناء عودته سلب مال إسماعيل الصفوي وعاد بالسجاد العجمي والثروات التي حُمّلت على الخيول التي كان قد اصطحبها معه، لدرجة أنه صادر ثلاثمائة حصان من خيول الصفويين، وحمّلها بالذهب والفضة، أما بالنسبة لبلاد الشام فقام اليهود بشراء ذمم بعض القادة المماليك أمثال جان برد الغزالي وخاير بك وأحمد باشا، بهدف الانقلاب على (قانسوه الغوري سلطان المماليك)، وبخيانتهم لدولتهم، تمكن السلطان سليم الأول من إزالة الدولة المملوكية^(٢).

يُعلّق أوليا جلبي على العداوة ما بين المسلمين واليهود بالقول: لم يعاشر العثمانيون قوماً من اليهود، وإذا كان السلطان بيازيد الثاني قد رحب باليهود، فالمنقول للناس كافة أن اليهود من الشعوب المختارة وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم فيما يزيد عن مئتين مرة، وأنهم أهل علم ومال، والدولة كانت بحاجة إلى تلك الخبرات الإدارية والمالية، فهي دولة عسكر وفلاحين ومزارعين، ولا يمكن أن تضبط شؤونها المالية إلا بالاعتماد على خبراء ماليين، ولا يمكن الاعتماد على المسيحيين لأسباب عدة، أما

(١) ابن إلياس، محمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٠م، ج١، ص٢٠٦.

(٢) صولاق، زاده، اليهود الصفويين، إسطنبول، ١٢٨٩هـ، ص٢٣٧.

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م
الاستعانة باليهود، فلا تحتاج إلى موافقة مشيخة الإسلام، وبقدوم اليهود يتحسن دخل الدولة مالياً أكثر
من السابق^(١).

في البداية كان الوجود اليهودي في مدن سالونيك وإزمير وإسطنبول، وقاموا بتشكيل مُجمّع حاخامي
عام ١٤٦١م في إسطنبول مهمته الاشراف الاسمي على اليهود، وتوجيههم بشكل يحقق لهم الاستقرار،
واتفقوا على تسمية رئيس المُجمّع أمير يهود القسطنطينية، وبدأت أعداد اليهود تتزايد بشكل ملحوظ
منذ عهدي السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م، وابنه السلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م،
حيث بلغت (١١٥، ٤٢٠) فرداً، وإن تَأَقَّفَ اليهود من أعمال الصيرفة والتجارة، دفعهم للتسلل إلى
القصور العثمانية، ولاسيما أن القصور العثمانية مؤسسات عمرانية تضم المهن والحرف كلها، وتمكنوا
بفضل اتساع المؤسسة الهمايونية وتزايد حاجياتها وتنوع قواها البشرية من تعميق وجودهم وبسط
نفوذهم من خلال زواج السلاطين بالنساء اليهوديات، هذا النفوذ أحدث مع مرور الزمن تبديلاً في
أهدافهم وتغييراً في مخططاتهم^(٢).

إن تزايد النفوذ اليهودي في إدارة الدولة العثمانية ومؤسساتها كلها، أشعر أوروبا التي تخلّصت من
مشكلاتها بضرورة تحسين علاقاتها مع اليهود، وبسبب تراجع الإدارة العثمانية وضعفها، زاد التلاحم
الأوروبي اليهودي، فهل يعقل أن من هاجم فيينا عدّة مرات وهاجم هنغاريا وغيرها وخاطب فرانسوا
الأول الفرنسي كأنه والٍ من ولاته؟ (ونقصد السلطان سليمان القانوني) أن يتطّح من تلقاء نفسه، بمنح
فرنسا امتيازات عام ١٥٣٥م، لولا تشجيع من زوجته روكسلانة التي أعلمها حاخام فرنسا في إسطنبول،
بأن فرنسا تشدد الخناق على اليهود الذين يعيشون في كنفها، وأن الأمر يقضي إشغال فرنسا بقضايا
خارجية لصرف أنظارها عن ظلم اليهود، واقترح حاخام إسطنبول منحها امتيازات خاصة بها من باب
تأييدها ضد إسبانيا، فعرضت على السلطان سليمان ضرورة تأييد فرنسا تحدياً لإسبانيا، ولحقّت انكلترا

(١) جلبي، أوليا، رحلة نامه، بورصة، ١٢٨٧هـ، ص ١٥٦. يسوغ أوليا جلبي (تشلبي: تعني الطريف الجميل الأنيق)
للعثمانيين ولاسيما السلاطين الزواج باليهوديات، على الرغم من معرفة العرب المسلمين بموقف الرسول الكريم من
اليهود.

(٢) عامر، جوازي القصور العثمانية، ص ٢٦٩-٢٧٤.

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م
وهولندا وباقي الدول الأوروبية بفرنسا في الحصول على امتيازات مماثلة (انكلترا عام ١٥٧٩م-
هولندا ١٥٩٨م-المجر عام ١٦١٥م-روسيا.....).

وفيما يتعلّق بالامتيازات تذكر **ليلي الصَّبَاغ** في مقدمة أطروحتها للدكتوراه:

((إن إقامة الجاليات الأوروبية في مدن سوريا منذ القرن السادس عشر يعتبر مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوروبي ولونا من ألوان الحملات الصليبية التي شُنّت على العالم العربي والإسلامي بعد الحرب الصليبية لتستعيد الأرض التي فقدتها عبر معاهدات واتفاقيات تبدو ذات طابع تجاري إلا أنها تحمل في طياتها تغلغلاً خفياً، واستثماراً اقتصادياً وتدخلًا وتمهيداً للاستقرار النهائي في البلاد))

وقول **شوازل غوفيه** آخر سفير للمملكة الفرنسية لدى الدولة العثمانية: (بأن ثغور الليفانت هي أجمل ممتلكات المملكة) ومن تأييد المؤرخ **فاندال** لذلك بقوله: (أن متاجر الليفانت القائمة في البلاد التي لا تمتلك فيها فرنسا إصباعاً واحداً من الأرض، كانت تحمل إلينا أرباحاً مادية ونقدية أكثر مما تحمله المستعمرات الحقيقية، وأكثر من جزرنا في أميركا أو مراكزنا في الهند فهي بالنسبة لنا امبراطورية استعمارية بثمن زهيد)^(١).

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن اليهود الذين سَكَنوا الدولة العثمانية لم يتصوروا أنهم سيحظون بتأييد حكومي، وبنفوذ يدفع ملوك أوروبا وساستها لملاطفتهم، ولاسيما أن اليهود يكونون الحقد على الأوروبيين أكثر من العثمانيين، إذن فعامل الكراهية، إضافة لمحاولة أوروبا الانتقام من العثمانيين، وسعي اليهود للبحث عن مكان يتوطنون به يخلصهم من التهجير والتشرد، أكد حتمية انهيار الدولة العثمانية التي مُنِيَتْ منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي بسلطين لاهمّ لهم إلا التباهي والجري خلف النساء، وترك إدارة إمبراطوريتهم لقوى إنكشارية جُمِعَتْ من دول عدّة تفتقر أصلاً

^(١) ونصت الامتيازات بمعظمها على تخفيض الضرائب الجمركية التي تتلقاها الدولة العثمانية على البضائع الأوروبية المستوردة، وبالمقابل كانت التجارة الداخلية تخضع لنسبة كبيرة من الضرائب الجمركية مما أضر بها وأضعف منافستها للبضائع الأوروبية المستوردة، وهذا ما أدى الى استيلاء رأس المال الأجنبي على المراكز الرئيسية في جميع المجالات الاقتصادية، الأمر الذي حوّل الدولة برمتها فيما بعد الى شبه مستعمرة أوروبية تحت وطأة الديون والاحتكارات الأجنبية/ للمزيد: الصَّبَاغ، ليلي، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت شارع سوريا، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص ١١-١٢.

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م

إلى مقومات التضامن الإداري والتعايش البشري، ولاسيما أن حاميتها قد تخفّى في أروقة القصور الحافلة بكل ملذات الحياة، إن ما تمتلكه الدولة العثمانية من مناطق وممالك متعددة سُكانياً ودينياً وقومياً، أثار دافع اليهود وشجعهم على ضرورة السعي لتأمين مكان خاص بهم، وعاماً بعد عام، تزايد تآكل الدولة العثمانية من أطرافها وتراخى السلاطين حيال فقدانهم لبعض ولاياتهم، وهذا ما دفع مفكري اليهود إلى البحث عن وطن خاص بهم، وفيما بعد في أوائل القرن التاسع عشر تبلور الحلم اليهودي لتغدو فلسطين العربية أرض ميعاد مرتقبة لأنها الأرض التي تمكنهم من اختلاق أباطيل مزعومة للسيطرة عليها، وتدافع يهود العالم إليها بموجب تلك الأباطيل، وكانوا على يقين بأن أوروبا ستساعدهم في تحقيق حلمهم^(١).

ثانياً- مصروفات السراي الهمايوني:

إذا كان السلاطين الأوائل قد تحلوا بصفات الرجولة وحسن التعامل مع أتباعهم ورعيّتهم، وظلوا على تواصل معهم، ولم يتخذوا محظيات، ولم ينثروا الذهب والفضة، ولم يلبسوا الحرير، ولم يزينوا أعناقهم كالنساء بعقود من الفضة والمرجان، ولم يتخنثوا، ولم يتلفظوا بنصف الكلمات كالإناث، فقد كانوا أقرب للبداوة وبساطة العيش، فخلفاءهم افتقروا لصفات آبائهم وأجدادهم، وتخلوا عن تراثهم في السلوك والمعاملة والمظهر، و تحجبوا عن رعيّتهم، وتعالوا عليهم، وقُدّرت ثرواتهم بملايين من الليرات الذهبية، وشربوا الأفيون هرباً من الكوابيس، ويذكر **محمد جميل بيهم** ذلك فيقول: (فالتقاليد والعوائد والأشكال والمناهج الإدارية والمالية والبلدية، فضلاً عن أصول (التشريفات) كل ذلك وغيره ليست الأصول العثمانية، بل اقتبسوه من البيزنطيين، حتى يمكن أن يقال إنهم قلدوهم في حياتهم الاجتماعية جملة واحدة)^(٢).

(١) عامر، جوارى القصور العثمانية، ص ٢٧٥.

(٢) بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص ٢٦.

١- بذخ السلاطين وتبذيرهم:

صحيح أن العثمانيين حققوا انتصارات كبيرة، وجمعوا ثروات ذهبية طائلة، ولكن السؤال أين استثمرت تلك الأموال؟ بعض الأمثلة على استثمارها (فالسلطان سليم الأول عندما تولى العرش عام ١٥١٢-١٥٢٠م قام بتوزيع العطايا على الانكشارية، فأصاب الفرد الواحد منها ثلاثة آلاف أقة، والليرة الذهبية تساوي أفجتين، وعُثر في خزانته على عقود ومجوهرات وكميات كبيرة من الذهب والفضة، هذا على الرغم مما وزعه على المحظيات بعد عودته من حروبه في سورية ومصر وما نُهب من مال تبريز وحلب ودمشق والقاهرة سَلَّمها لزوجته حفصة، ابنه السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م، عندما أعلن زواجه رسمياً من روكسلانة، وزع ما يعادل مئة ألف ليرة ذهبية، وابنه السلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م منح محظيته بديعة هدايا تعادل ثلاثمئة ألف ليرة ذهبية، وابنه مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م أقام حفلة ختان لابنه محمد من زوجته صافية بلغت تكاليفها خمسمئة ألف ليرة ذهبية، حيث ظلت استانبول أسبوعاً كاملاً تأكل وتشرب وتغني بهذه المناسبة، وتكرمت صافية على الفرقة الموسيقية التي أحيّت الحفلة بآلاف الليرات الذهبية، ومنحتها ميزات الانكشارية، وعدّ تصرفها هذا ثاني تصرف أسهم في فساد الانكشارية (التصرف الأول عندما تخلى سليمان القانوني عن قيادتها)، وفي عهد محمد الثالث بلغت ميزانية الدولة عام ١٥٩٦م ما قيمته (٥٠٠,٧١١,٤٩٢) أقة، حصته لوحده منها (١٦٦,٩٠٣,٨٢٠) وما تبقى فهو ثلث للزينة العامة، والثلث الباقي للحرم الهمايوني، ناهيك عن قيمة الفرو للحرم وقيّمته (٢٥) مليون أقة والسلطان وموكبه (١٨) مليون وللمطبخ (٦) ملايين، باختصار مصروف القصر (٧٨) مليون أقة، وإذا كانت حدائق السلطان فيها من العمال (١٢) ألف عامل، ناهيك عن دفع رواتب ٧٠٠,٠٠٠ آلاف انكشاري (١٣٠) ألف موظف، عدا عن السخرة ونفقات الأسطول الهمايوني، وباختصار شديد، إن للسلطان الحاكم من واردات الدولة أكثر من ١٠% وللحرم ٨% وللصدر ولوزرائه ٩% ^(١).

(١) بينهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص ٢٦-٢٧.

٢- مطبخ السراي الهمايوني:

ليس بمقدور البحث أن يقيم جدولاً بعدد المحظيات التي وفدت إلى القصور العثمانية، فالتحدث عن الجواري اللواتي عشنَ في السراي الهمايوني فضلاً عن بقية العاملين من الخدم والحشم والحراس والخصيان البيض والسود، يحتاج إلى مجلدات، ولتلبية الحاجات المادية لهذه الأعداد تم إنشاء مطابخ إمبراطورية (مطبخ-أي أميري) ومصنع فطائر وحلوى (حلوى- خانه) على أحد جانبي الحوش الثاني إلى يمين مدخل باب الوسط، وهذه المطابخ كانت تشهد تطوراً بالغاً في ظل سليمان القانوني بحيث أصبحت مشروعاً مثيراً^(١).

وأطلق على معلّم الطباخين في القصر (آشجي باشي)، طبّاخو السلطان الخواص (قوشجي باشي)، يأتي بعدهم في الترتيب طبّاخو المطبخ الخاص بوالدة السلطان، والأمراء، وأفراد الحرم السلطاني، ثم طبّاخو المطبخ العامر الذين يجهزون طعام العاملين في القصر، وإلى جانب الطباخين مساعدون مجندون بشكل خاص من بين (العجمي أوغلان)^(٢)، وصل عدد الطباخين إلى (٢٣٠) طبّاخاً في عام ١٥١٤م، و(٢٧٧) في عام ١٥٢٧م، و في عام ١٥٦٧م وصل عدد خدم المطابخ الإمبراطورية إلى (٦٢٩)، وفي العام نفسه وصل المبلغ المرصود من الخزانة للمطبخ إلى خمسة ملايين أقجة، وكان يجري حشد مخزون ضخّم من المواد الغذائية من جميع الأنواع الواردة من مختلف أقاليم الإمبراطورية، تحت إشراف أمين (قيلير - اميري) وكان يجري ذبح أربعين خروفاً وأربعة ثيران يومياً لمطبخ السلطان، ناهيك عن لحوم الدجاج ولحوم الصيد التي تُقدّم إليه، واللوازم الأخرى.

وهكذا ففي سنة ١٤٨٩-١٤٩٠م جرى استهلاك (١٦٥٥٣) خروفاً، وفي عام ١٥٧٣-١٥٧٤م كُرس (٣٧٤) خروفاً لإطعام طيور الصيد والقنص^(٣).

(١) مانتران روبيير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٢٦٩.

(٢) صابان، المعجم الموسوعي...، ص١٥.

(٣) مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٧٠.

وكان السلطان العثماني مضطراً إلى اتباع روتين صارم فيما يتعلق بأنشطته اليومية مثل: برنامجه اليومي، من سيقابل من الأغوات، متى سيتناول الطعام، (فطعام الغداء كان يتم في الساعة الحادية عشرة، بسبب تناوله طعام الفطور باكراً)، وأين ستُعَد الوجبة وكيف ستُقدَّم كانا أيضاً من الأمور المرتبة مسبقاً، وكان المطبخ يُعد للسلطان في كل يوم ستين نوعاً من الأطعمة، إلا أنه لم يأكلها كلها بالطبع، بل إنه في بعض الأحيان يكتفي بالنظر إليها، وفي أحيان أخرى كان يتذوقها فقط، ومالم يأكله السلطان يأكله آخرون من بعده، وكان الطبّاخون يتذوقون الطعام بأنفسهم، ومن ثم كان يُجرب على خدم خاصين أوكل إليهم واجب منع أي محاولة لتسميم الطعام، وأطلق على الدواوين (تشاشنجير- ذواقين) وكان عددهم في عام ١٥١٤م (٢٤) ذواقاً^(١). ما تم ذكره عن مصروفات المطبخ لوحده غيض من فيض، وهناك الكثير من المصروفات على الملابس والأقمشة والمجوهرات.....

ثالثاً-أوضاع ولايات بلاد الشام في القرن السادس عشر:

يذكر ابن طولون أنه لدى دخول السلطان سليم الأول إلى دمشق صرّح بأنه ينوي الإصلاح والإعمار فقال: (أنا ما جئت إلّا لأعمر، وما جئت لأخرب)^(٢) والسؤال: هل فعلاً عمّر البلاد أم نهبها وأهدى أموال ضرائبها لمحظياته؟

كانت سوريا في العهد العثماني (القرن السادس عشر وفترة طويلة من القرن السابع عشر) مقسمة إلى ثلاث ولايات هي: (حلب، الشام، طرابلس الشام) أما القسم الذي يشكل البادية بين العراق وسوريا وتركيا حالياً، فإن منه ما كان ينضم إلى ولاية الموصل، ومنه ما كان يتبع الرها كلواء (عنه وهيت ودير الرهبة....) وكانت إمرة هذه المناطق في عائلة أبو ريش أمير البادية، وكان لكل من حلب والشام وطرابلس دفتر دار وميزانية مستقلة، ويظهر أن البادية كانت تابعة لميزانية ديار بكر. وكان

^(١)أورتايلى، إيلبير، إعادة استكشاف العثمانيين، ترجمة: بسام شيحا، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٢م، ص١٣٠.

^(٢) ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، تحقيق: محمد المصطفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م، ج٢، ص٣٩.

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م
يدخل في عداد ولاية الشام في القرن السادس عشر أحد عشر سنجقاً وهي (الشام، صفد، القدس،
عجلون، لجون، غزة، نابلس، تدمر، صيدا، بيروت، كرك الشوبك)^(١).

١- الولاية في ولايات بلاد الشام:

كان يتم تعيين الوالي على الولاية من قبل السلطان مباشرة، ويلقب الوالي بلقب (الباشا)، وهو مطلق التصرف في شؤون ولايته، والسلطان لا يتدخل في شؤون الولاية مادام الوالي لا يجلب مشكلات خطيرة، وكان من مهماته الرئيسية ضمان استمرار الولاية في ولائها للسلطان، وضمان الأمن والعدل في الولاية، وكان يفرض عقوبات فورية بقتل أو شق العاصين لأوامره، وقد يتدخل في تحديد الأسعار وتأمين الغذاء، ويرسل الوالي المبالغ المفروضة عليه عن ولايته سنوياً، إلى العاصمة إسطنبول، وكذلك كان يرسل تقارير بصورة دورية إلى العاصمة، وأيضاً عليه تهيئة وإعداد الجيوش وتدريبها لغرض إرسالها لمساعدة السلطان عندما يطلب من الولاية ذلك في أوقات الحروب، وكل ذلك كان يسير بصورة طبيعية في فترة قوة العثمانيين، ولكن في فترة ضعفهم نجد أن الولاية أصبحت شبه مستقلة عن السلطان وأخذوا بالامتناع عن إرسال الأموال المفروضة عليهم ويتأخرون في إرسال الجيوش لمساعدة السلطان في وقت الحروب والأزمات، وكانت مدة ولاية الوالي في الولاية سنة واحدة قابلة للتجديد لمدة ثلاث سنوات، ولمّا كانت هذه الفترة غير كافية لمعرفة أحوال الولاية والتخطيط لأعمال تحتاج فترة طويلة من العمل، لذلك كان هدف الوالي جمع أكبر كمية من المال في فترة ولايته، وكان يحاول المحافظة على الوضع القائم قدر استطاعته، لفترة بقاء الوالي في ولايته تتوقف على مقدار علاقته بالسلطان ومقدار المبالغ السنوية التي يرسلها، كما كان لعلاقة الوالي بأفراد حاشية السلطان (وخاصة الحريم) أثر كبير في بقائه أطول فترة ممكنة في الولاية^(٢)، مثلاً: قامت روكسلانة وصهرها رستم باشا بتعيين الولاية المفسدين في الولايات العربية أمثال خسرو باشا، (وبشهادته عزلته)، لأنه لم يُعيّن بعض اليهود في مالية دمشق، وعينت مكانه عام ١٥٤٥م بيري محمد باشا (آخر صدر أعظم تركي) والياً

(١) أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، تقديم: أكمل الدين احسان أوغلو، مركز الأبحاث

إرسيا، إسطنبول، ٢٠٠٠م، ص ٢١.

(٢) الجنابي، بثينة، نظم الحكم والإدارة العثمانية في الوطن العربي، مجلة كلية التربية الأساسية، ال عدد ٧١، ٢٠١١م،

ص ١٥.

على دمشق، أمّا **نوريانو**، فلقد مدّت التجار اليهود بصكوك امتلاك محلات في بلاد المغرب وجونة في لبنان ودمشق، ناهيك عن عزل الوالي الذي يمارس أي ضغط على اليهود، أو يفرض عليهم رسوماً، وطلبت من ولاية بلاد الشام (حلب ودمشق) عدم مضايقة اليهود وغض النظر عن بعض الضرائب المفروضة عليهم بحسب النظام المالي، وأقرت بضرورة تنظيم مالية الولايات العربية بالاعتماد على خبرة اليهود في هذا المجال، وبحسب ما ذكرته المصادر أن السلطنة **نوريانو** هي التي دفعت السلطان سليم الثاني إلى تعيين اليهودي **إبراهيم كاسترو** وزيراً للمالية وكان كاسترو هذا قد جاء مهاجراً إلى الدولة العثمانية مع خمسمئة يهودي في عهد السلطان سليمان القانوني وذلك عام 1553م، وكان كاسترو مسؤولاً عن سك العملة في مصر، أمّا ما أدته **صفية** فقد انصرفت إلى فتح الموانئ العثمانية للبحارة الايطاليين، وتسهيل البعثات التبشيرية لبناء مدارس في حلب وقوت مركز بعثات الفرنسيين والدومنيكان، وحدّت من تصرف روسيا الأرثوذكسية في أملاك العثمانيين، وما يفهم من المصادر أنها كانت شديدة التعصب لكنيسة روما وباباواتها^(١).

هذا وأكثر السلطات العثمانية من تغيير الولاية، فحكم بعض الولاية أقل من شهر، فقد حكم الشام خلال الفترة ما بين عامي ١٥١٦-١٥٩١م ستة وأربعون والياً ثلاثة منهم حكموا ثلث المدّة، وحكم حلب في فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر ستة وسبعون والياً، وكان الوالي يتسلم مرتباً سنوياً يقتطعه من الأموال التي يجمعها من ولايته، ويجمع الوالي بين السلطتين المدنية والعسكرية، وقد يتولى جمع الضرائب والرسوم في ولايته.

ويعمل إلى جانب الوالي عدد من الموظفين: يسمون (أركان الولاية)، نائبه **الكتخدا** مسؤول عن الأمن، **الدفتر دار** مسؤول عن المالية، **والمكتوبجي** مسؤول عن تحريرات الولاية **الخازن دار أمين** الخزانة، وهؤلاء جميعاً يعينهم الوالي، أما **أغا القلعة** وهو قائد الحامية العسكرية يعينه آغا الانكشارية وفيما يتعلق بالأمور القضائية فتسند إلى القاضي الذي يعينه شيخ الإسلام في إسطنبول وبفرمان من

(١) آقد، كونوز، الوثائق تنطق بالحقائق، ترجم منه الدكتور محمود عامر ٤٠ وثيقة زودني بما يفيد بحثي، وهو لايزال مخطوط في مكتبته، الوثائق هي ١٢١ و ٣٢٥ و ٣٦ و ٧٨، وكل وثيقة من عشرة شرح المضمون ورفض إعطائي صورة عنها، لأنه سيطبعها في كتاب.

السلطان وكان للقاضي نواب في سائر أنحاء الولاية، وتمتع الوالي باحترام كبير بحكم منصبه بعده ممثلاً للسلطان، يشارك في موكبه كبار رجالات البلد وقادة الجند كما عدّ الوالي رئيساً للسلطة التنفيذية مع ممارسة حق الاشراف المطلق على الشؤون الإدارية والاقتصادية بالإضافة إلى بعض الصلاحيات القضائية والعسكرية.

وهناك نقباء الأشراف^(١) في عواصم الولايات والمدن العربية، والأشراف هم الذين يعودون بنسبهم إلى الرسول الكريم(ص) ومعظمهم من الأسر العربية، وقام هؤلاء الزعماء في مدنها بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين كما حاول الأشراف في بعض الأحيان أن يحدوا من جماح سلطة الوالي باعتبار أن لديهم القدرة على تعبئة الرأي العام وتجنيده لما لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين أصحاب المناصب الدينية، وثُركت إدارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وتقليدها، ولعل ذلك ناتج عن عجز الدولة من أن تبسط الحكم القوي والفعل في ولاياتها.

ـ ديوان الولاية:

كان في الولاية ديوان رئيسي يتبع إلى الوالي يجتمع عادةً في المحكمة، ثم يذهب أعضاؤه إلى دار الولاية لعقد اجتماعهم صباح الجمعة لبحث شؤون الولاية برئاسة الوالي ويضم: الدفتر دار، والقاضي، ونقيب الأشراف، ونقيب التجار(الشهبندر)، وعدداً من أعيان البلد. وبعد الانتهاء من البحث يسير الوالي في موكب رسمي لأداء صلاة الجمعة، وكان يرسل مذكرة سنوية إلى إسطنبول عن الأعمال والمداورات التي تمت في الديوان.^(٢)

٢- الضرائب المفروضة على ولايات بلاد الشام:

تقنن السلاطين العثمانيون وولاتهم في فرض الضرائب والرسوم، حتى بلغ عددها سبعة وتسعين ضريبة ورسمًا. وكان السبب في فرض هذه الضرائب الكثيرة، هو أن الوالي كان مسؤولاً عن النظام في الولاية، وعن الإنفاق على الجيش والموظفين العاملين برفقته. لذلك اضطر إلى جباية ضرائب مبتدعة وغير رسمية، لتأمين نفقاته الخاصة ونفقات الولاية العامة. على أن بعض الولاة أسرفوا في الضرائب

(١) الأشراف في مكة، آل البكري في القاهرة، آل النقيب في البصرة، آل الكيلاني في بغداد، آل الخالدي والعلمي في القدس، آل الجابري في حلب.

(٢) ببيزون، جميل، تاريخ العرب الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع، د.م، ط١، ١٩٩١م، ص٥٦-٥٧.

التعسفية لدرجة لا تطاق، فعلاوة على الضرائب الرسمية، كالأعشار والجزية والرسوم والمواشي والجمارك، كان هناك ضرائب أخرى لا تدخل خزانة الدولة، وإنما تذهب إلى خزائن الولاة وكبار الموظفين، ففرضوا ضرائب خاصة على شجرة الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة. كما كان هناك رسوم تفرض على الحاصلات التي تنقل من الحقول إلى المدن، ورسوم أخرى تفرض على المحلات التجارية والأماكن العامة في المدن. ومن هذه الرسوم، رسوم فتح بندر، مباشرة حمام، عيدية، رسم قدوم^(١)، رسم عروس وهذا يتوقف على العرس، حلوان الضال، وموت شخص لا وارث له، وهذه الضرائب وأمثالها تدعى عند العرب (طيارات)، و(باد هوا) بالفارسية^(٢).

وهذا ولعبت سوريا ومصر دوراً مهماً في اقتصاد إسطنبول والإمبراطورية العثمانية، فمن مصر كانت ترسل المنتوجات الغذائية كالأرز والقمح والشعير والتوابل والسكر إلى البلاط السلطاني، بينما كانت سوريا ترسل خلال القرن السادس عشر خمسين ألف كيلو غرام من الصابون في السنة إلى البلاط، أما ذهب السودان فقد كان يصل إلى إسطنبول عبر مصر، كما كانت خزانة الدولة تحصل في كل سنة على نصف مليون دوقية ذهبية من فائض الدخل في مصر، وكانت الحكومة المركزية تصرّ على أن تحصل على هذا المبلغ بالعملة الذهبية، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت مصر تُحمّل أعباء مالية أخرى، ففي عام ١٥٣٢م على سبيل المثال أرسلت مصر إلى الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) أربعين ألف دوقية كهدية، كما أنها في العام ذاته قدمت (١٣,٨٦٦) دوقية ذهبية لحاجات البلاط من سكر وتوابل وأدوية، و(١٢,٠٥٣) دوقية ذهبية للمجوهرات والأقمشة، وبالتالي كانت مصر وسوريا الغنيتان تمثلان المصدر الرئيسي لثروة السلطنة، حتى انهما كانتا في عام ١٥٢٨م توفران ثلث مصادر الدخل للإمبراطورية العثمانية^(٣).

(١) كانت قرية الكسوة الواقعة جنوب دمشق مركزاً لتحصيل الضرائب المفروضة على الحاصلات الزراعية. رسوم فتح بندر: إذا فتح أحد الناس دكاناً أو محلاً تجارياً عليه دفع رسم معين، مباشرة حمام: عند مباشرة أحد بفتح أو استئجار حمام. عيدية: وكانت تؤخذ في كل عيد وكذلك خمسينية في كل خميس. رسم قدوم: ويجري تحصيله عند قدوم الوالي واستلامه الوظيفة كتكريم له/ للمزيد: الحسيني، علي، تاريخ سورية الاقتصادي، دار بدائع الفنون، دمشق، ١٩٣٢م، ص ١٣٦-١٥٢.

(٢) أوغلي، خليل، من تاريخ الأقطار العربية.....، ص ٢٤٢.

(٣) اينالبيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء.....، ص ١٩٩.

ولهذا ظلت الولايات في تأخر في شؤونها العامة ولاسيما في اقتصادها، بسبب ممارسات الولاة وفرضهم غرامات ورسوم على الفلاح والأرض بشكل خاص، ورغم تدهور حالة الفلاح، فإن الدولة لم تسع لتحسين حالته لاستمراريته بالعمل، وبدا من عبث العثمانيين بأوضاع الولايات التابعة لها على أنها دولة استهلاكية، وبُداء، تحضروا من خلال النساء بعضهم أصبح على معرفة لابأس بها بلغة محظيته، وبعضهم الآخر ما تحضر ولن يتحضر، وإن القمار والخمرة جزء من كيان معظم السلاطين، و مما يشفع لهؤلاء السلاطين، أنهم يتامى، لا أم تُربي، ولا أب يوجه، ولا إخوة يقفون لجانبهم في وحدانيتهم، وفضلاً عن هذا وذاك، فقد أرغموا على الإقامة الجبرية في قسم الحرملك واكتووا بنار الغربة والغباء العثماني. وإن تاريخ الدولة العثمانية يمكن اختصاره في كلمة (نهب)، فالولاة العثمانيون على بلاد الشام ومصر وسائر البلاد العربية، كانوا مشغولين طيلة الوقت بإرضاء الباب العالي وإرسال الهدايا وتوطيد حكمه في مملكته، أما الشعوب العربية والإسلامية فكانت آخر اهتمامات (العثمانية) كما أطلق عليهم من قبل أهالي بلاد الشام^(١).

فعندما يذكر **اينالجيك** أنه في عام ١٤٧٥م كانت هناك أربعمئة جارية في بلاط طوب قابي، ومئتان وخمسون جارية في البلاط القديم، يمكن توجيه السؤال للموتى وأولهم الفاتح، أل هذا الهدف وتلك الغاية بنيتم قصر الطوب قابي، ماذا قدم العثمانيون لولاياتهم التي قدمت تلك الأموال تتنعم بها محظيات أوروبية؟

رابعاً-الأعمال الخيرية لمحظيات القرن السادس عشر:

وبحسب الوثائق فإن الكثير من محظيات السلاطين ولاسيما محظيات القرن السادس عشر شاركن في إقامة مؤسسات خيرية، رغم تنوع الأهداف والغايات، وتركز نشاطهن على إقامة لقاءات توعية وتنقيف، ولاسيما للمرضى داخل مدينة إستانبول، وأرسلوا أموالاً لبناء مدراس في أرضروم ومانيسا^(٢)

(١) شعبان، ستة قرون إرهاب وإخساء وحريم، ص ١٠.

(٢) مانيسا: كانت إحدى ولايات الدولة العثمانية، وهي حالياً إحدى الوحدات الإقليمية من دولة اليونان، وبها ميناء تجاري كبير.

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م

وعينتاب، وقدمن مساعدات للجنود الجرحى، ومعظم السلطانات المسيحيات قدمن للجرحى والمرضى في البلقان تكاليف المداواة، وبالرغم من البحث المطول في أمهات المصادر والمراجع واللجوء إلى الويكيبديا لم نعثر على ما يشير من قريب أو بعيد أن المحظيات قُمنَّ بأعمال خيرية في بلاد الشام. واتضح أن أعمال محظيات القرن السادس عشر كانت خارج بلاد الشام وتركزت في مصر ومناطق المغرب العربي.

وسنعرض بعض الأمثلة عن أعمال خيرية لبعض محظيات القرن السادس عشر:

١- الجارية حفصة:

قامت بأعمال خيرية عديدة في ولاية مانيسا، حيث ابنتت فيها كلية كبيرة ضمت جامعاً، ومدرسة، وعمارة، وخانقاه^(١)، ومشفى وحمام، ومدرسة صبيان، ولها وقفية مكتوبة باللغة العربية بخط التعليق^(٢)، مؤرخة (٩٢٩هـ/١٥٢٢م)، يقدم فيها الطعام مرتين في اليوم، صباحاً ومساءً، لطلبة العلوم الدينية والعلماء وضيوف الخانقاه وطلبة المدرسة والفقراء، وكان لها مجمّع في مانية يطلق عليه (مجمّع السلطانية) وبدأت أعمال انشاء هذا المجمّع (٩٢٠هـ/١٥١٣م-٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، في أثناء تواجدها في مانيه مع زوجها السلطان سليم، ويتألف هذا المجمّع من جامع ومضيضة ومدرسة صغيرة، ومدرسة كبيرة، وتكية وحمام ومستشفى، وتم تشييد الجامع وقسم من المباني التابعة له عام ١٥٢٣م، أما الحمام والمستشفى ففي عام ١٥٣٨م، وبعد وفاة السلطنة حفصة عام ١٥٣٤م، قام السلطان سليمان القانوني بإضافة بعض الملحقات إلى هذا المجمّع، وتوفيت السلطنة حفصة عام ١٥٣٣م، ودفنت في إسطنبول في مسجد السلطان سليم^(٣).

(١) خانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة، والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، قال المقرئ: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة وجعلت لمتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. للمزيد: تاج العروس، ج ٢٥، ص ٢٧٠.

(٢) خط التعليق أو الخط الفارسي: هو خط من خطوط اللغة العربية يمتاز بجمال حروفه، وبالدقة والامتداد، والسهولة والوضوح.

(٣) يلماز، أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مؤسسة الفيصل، استانبول، ١٩٨٨م، مج ١ ص ١٤٦.

٢- الجارية روكلانة:

قامت هي وابنتها مهرماه ببناء العديد من الجوامع، والتكايا، وعدداً من الأسبلة، وحفرت الآبار بمكة المكرمة، والمدينة المنورة، كما ابنتى لها المعماري سنان، كلية اشتهرت باسم (خاصكى) وتضم مستشفى وعمار، ومدرسة للصبيان، وسبيلاً، كما ابنتى لها حمامان يحملان اسمها، يعتبران نموذجاً لعمارة الحمامات العثمانية، وفي عام ١٥٤٥م، عندما عينت بييري باشا والياً على دمشق كما ذكرنا سابقاً طلبت منه أن يحدد لها مكاناً مناسباً لبناء تكية في دمشق، فاختار مكاناً فسيحاً بجانب نهر بردى، وفعلياً بُوشر في بناء التكية بموافقة والي دمشق، ووعدھا السلطان سليمان أن تكون التكية باسمها، غير أن شيخ الإسلام نبه السلطان بعدم بتسميتها باسم روكلانة لأن يهوديتها قد تثير حفيظة المسلمين العرب وهو تصرف يُعدّ بادرة سيئة، وقد تنسب باحتجاج علماء دمشق وعقلائها، وبما أنه بُوشر بالعمل عام ١٥٥٥م ولم ينته حتى عام ١٥٥٨م وكانت روكلانة على فراش الموت، فسمى التكية باسمه^(١). ودفنت في فناء جامع السليمانية في مقبرة تحمل اسمها.

٣- الجارية شمس رخسار قادين:

كانت جارية للسلطان مراد الثالث، لها وقفية مؤرخة ١٠٢٢هـ، جاء فيها أن (صاحبة الخيرات والحسنات، وراغبة الصدقات والمبرات شمس رخسار خاتون بنت عبد الغفار، أوقفت مبلغ ألف ومائة على ثمانية أشخاص يقومون بتلاوة القرآن الكريم على زوجها في المسجد النبوي في المدينة المنورة)

٤- الجارية صفية:

أهم خيراتها الجامع الجديد في إسطنبول، وجامع آخر في إحدى قرى إسكودار، وعين ماء وسبيل، وأمرت السلطنة صفية بالبدء ببناء مسجد جديد في عام ١٥٩٧م. ولكنها توفيت قبل أن يتم اكتمال بنائه، وقامت السلطنة تورهان خديجة باكمال بنائه بعدها. وقد أُقيم حول المسجد مقبرة السلطان، ويوجد أيضاً السوق المصري، فضلاً عن ذلك تم بناء مسجد السلطنة صفية في القاهرة، وتوفيت في عام ١٦٠٥م، ودفنت في قبر السلطان مراد الثالث في آيا صوفيا^(٢).

(١) يشار، أوزجان، أفعال روكلانة، ترجمة: محمود عامر، دار الفكر، لبنان، ١٩٩١م، ص ٧٩.

(٢) عبد الرزاق، عيسى، مختارات من وثائق العصر العثماني، ط ١، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢٣٤.

٥- الجارية نوريانو:

أسست كلية في اسكودار تعرف باسم (والده عتيق) أوقفتها لأعمال الخير، وتضم هذه الكلية جامعاً ومدرسة، ومستشفى، وعمارة، وحمامات، ومدرسة للصبيان، وكلها من آثار المعماري سنان، وقد جمعت نوريانو في هذا الجامع أجمل نماذج فن الخزف العثماني، وأوقفت عليه أوقافاً غنية، منها حمام كبير، وحمامان آخران في قلب إسطنبول، وحمام آخر به حوض، كما أنشأت سبيل ماء لخدمة هذه الكلية، فكانت تجلب له الماء من ثلاثة منابع واقتترنت به مؤسسات اجتماعية ودينية^(١).

(١) يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٥١.

-استنتاج الفصل الثالث:

كتب مبعوث البندقية إلى إستانبول باريارو: «إن من رأى وجه السلطان سليم الثاني وهو منفوخ بالنبيذ القبرصي، وتأمل جسمه القصير المنحني من الانغماس في الشراب، لم يكن ليقدر فيه جهاده، أو تزعمه للمجاهدين. فقد كان سليم يفضل حياة الحريم والخصيان على قيادة قواته. وكان يقضي أيامه في الاستمتاع الحسي منغمساً في الشراب والجنس». فإذا كان مبعوث خلال زيارته لأسابيع قد رأى أن سلطان في مرحلة القوة، وخلفاً لسلطان خيم صيته على العالم، وكلمته كانت نافذة على ملك فرنسا، والعالم الأوروبي بأمرائه يطلب وده، وابنه وخليفته لا يفارق دائرة الحريم، وواقع الأمر، فالخلف هذا حذو السلف، فلا عتب على الخلف.

لم يكتف سلاطين بني عثمان بمحظية واحدة وتصوروا أنهم، سيخوضون حروباً لن تنتهي ، قد يقعون أسرى ويحدث ما حدث مع الجد الأول بايزيد الأول، وتتشفى زوجاتهم بهم، وتتأسوا أن أم أوليفيرا هي التي شجعت ابنها محمد على استعادة مملكة والده، وبما أن الفاتح ختم حروبهم في المناطق الأوروبية ، وأن سليم الأول اتجه إلى الوطن العربي، فمن العبث أن تكون محظيات أوروبية على معرفة بكثير من أملاك الدولة، ومن العبث القول أن المحظيات اللواتي تزايدت أعدادهن عن أربعة آلاف جنن للمتعة، ومن العبث أيضاً تحديد أعمال الخيرية للمحظيات أو من العبث أن أعمالهن ستشمل معظم ولايات الدولة العثمانية، وربما أن الخصيان يؤتى بهم عن طريق مصر، ولهذا تركزت أعمالهن الخيرية في مصر، أما بالنسبة لبلاد الشام فقد كانت أعمالهن محدودة تجلت في عهد اليهوديات روكسلانة ونوريانو على حماية اليهود الذين هُجروا من إسبانيا، لمعرفتهن بالعداء الذي يكنه مسلمو بلاد الشام لليهود، أما بالنسبة لصفية فقد ركزت اهتمامها على التعليمات التي تأتيها من الفاتيكان ، ولهذا قدمت خدمات جلى لهم، وحرمت إلى حد ما الأرثوذكس، ومن خلالها وتوضيح أعمالها الخيرية يمكن أن يقرأ دور المحظيات اللواتي أسهمن بشكل مباشر في ترهل الدولة وضياع السلاطين العثمانيين.

خاتمة البحث:

بعد دراسة للدور السياسي والاجتماعي للحريم وانعكاسه على بلاد الشام ما بين عامي ١٥٢٠-١٥٩٥م، توصل البحث إلى عدة نتائج يمكن إجمالها بالآتي:

أولاً:

نجم عن تعدد الزوجات الأجنبية مشكلات خطيرة انعكست أثارها على الدولة العثمانية، وإن تعددهن أدى إلى تعدد الأمهات وهذا بدوره أسفر عن إشاعة جو صاحب من الغيرة والحقد والتنافس بينهن، لأن كل أم أنجبت ولداً تسعى بكل ما تملك من قوة لأن يكون ابنها ولياً للعهد وذلك من خلال حياكة المؤامرات ويشترك في تنفيذها الخصيان ورؤسائهم فضلاً عن الصدر الأعظم المتعاطف حسب مصلحته مع هذه الزوجة (باش قادين) أو تلك. وغالباً ما تنتهي هذه المؤامرات بقتل ولي العهد. الذي كان والده قد اختاره ليتولى عرش السلطنة من بعده وهذا ما حصل مع الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان القانوني بتدبير من زوجته روكسلانة حتى يستلم ابنها الأمير سليم.

إضافة إلى ذلك. إن تعدد الزوجات أسفر عن وجود تنافر عنيف بين السلطان وأبنائه الذين أنجبهم من سيدة أخرى والذين حرموا من وراثة العرش. قد يصل هذا التنافس والتنافر إلى حد الصراع الحربي بين السلطان وأبنائه لأن كل واحد من أبنائه يلوذ بوالدته فتسعى عن طريق المؤامرات المدمرة للدولة لتحقيق حلم جميل يراود الابن والوالدة. وهكذا كان حال الحريم الهمايوني مليء بالدسائس.

ثانياً:

بما أن فترة الدراسة تتمحور حول ثلاث نساء أديرت الدولة من خلالهن. وهن: روكسلانة زوجة السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م، نوربانو زوجة السلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م، وصفية زوجة السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م وبين البحث الذي كانت به كل سلطنة على حدى، بين البحث أن الدور الذي سلكته روكسلانة من خلال الأعمال التي قامت بها، والتي جلبت الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية وتمثل ذلك في تحريض زوجها السلطان سليمان القانوني على اصدار أوامر بعزل ثم قتل الصدر الأعظم ابراهيم باشا رغم الدور الذي أداه في خدمة الدولة. ثم

الدور السياسي والاجتماعي للحريم الهمايوني وانعكاسه على بلاد الشام ١٥٢٠-١٥٩٥م

تزويج ابنتها مهرمان من رستم باشا واصدار أمر بتعيينه صدر أعظم ثم حاكت المؤامرات بقصد قتل الأمير مصطفى ولي العهد بالتعاون مع رستم باشا وبعد قتله تم تعيين ابنها سليم في هذا المنصب. إن نجاح هذه المؤامرات يعكس الأوضاع السياسية على أعلى المستويات في الدولة ويجسد الدور البارز للحريم السلطاني بمركز قوة من أخطر مراكز القوى في الدولة وكان جوهر هذه المؤامرة التي حاكتها روكسلانة هو تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة العلية.

لكن نوريانو (سيدة النور) وزوجة السلطان سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م والتي أطلق عليها لقب (السلطانة الوالدة). فكانت ذات مركز خطير في الدولة العثمانية كون زوجها السلطان سليم وصف بالسكير والنصف روسي والمنحرف خلقياً، فتعرضت الدولة لحرب درنة انتهت بهزيمة الدولة العثمانية في ليباتو ١٥٧١م. لذا أطلق على السلطان سليم الثاني (التبيل) لأنه ترك أمور دولته لزوجته نوريانو ومستشاره اليهودي (يوسف مندا ناسي) غارقاً بين الحريم. فكانت فترة حكمه البداية الحقيقية والفعلية لانحطاط وانحلال الدولة العثمانية.

أما صفية زوجة السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م ابان حكم زوجها غدت السلطانة صفية مركز قوة خطير ودعامة من دعائم الدولة العثمانية. عملت بكل ما تستطيع من قوة على أن توجه السياسة الخارجية العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول جمهورية البندقية، وأثناء تواجدها في القصر دار صراع بينها وبين والددة السلطان مراد الثالث (نوريانو). من أجل السيطرة على الحريم السلطاني من جهة، ومن أجل توجيه السياسة العثمانية لوطنها الأم البندقية من جهة ثانية.

ثالثاً:

من خلال هذه الدراسة تبين أن نفوذ الحريم السلطاني بلغ حداً طال كل أجهزة الدولة. حتى أصبحت سيدات الحريم السلطاني يقمن بدور كبير في حكم الدولة. حتى ان الوالدة السلطانة مثلاً (نوريانو) والددة السلطان (مراد الثالث) تسيطر على الباشاوات بعد تعيينهم على الولايات ويتلقون العناية منها.

رابعاً:

أبان سيطرة الحريم السلطاني على أجهزة الدولة ومفاصلها لم يكن هناك تمييز بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان وخصوصاً عندما تقوم الوالدة السلطانة بشراء الفتيات وجلبهن إلى القصر نكاحاً بزوجة ابنها السلطان. حيث واجهت الحكومة المركزية في العاصمة أزمة مالية خانقة في عهد السلطان مراد الثالث مثلاً. بسبب اسراف الحريم السلطاني في الانفاق فاضطرت الحكومة الى سك عملة ناقصة العيار فرفض قادة الانكشارية التعامل بها. فلجأوا الى التمرد.

عند وفاة السلطان مراد الثالث عام ١٥٩٥م. تولى الحكم ابن السلطانة صفية محمد الثالث. فكان نفوذها طاغياً في عهد زوجها وابنها. فتولت شؤون الدولة حتى وفاة ابنها عام ١٦٠٣م.

أخيراً ان زواج سلاطين بني عثمان من الجواري أسفر عن تدهور الوضع في الدولة العثمانية من جهة وفي الولايات من جهة ثانية لأن الولاة يتم تعيينهم من قبل الحريم السلطاني.

الملاحق:

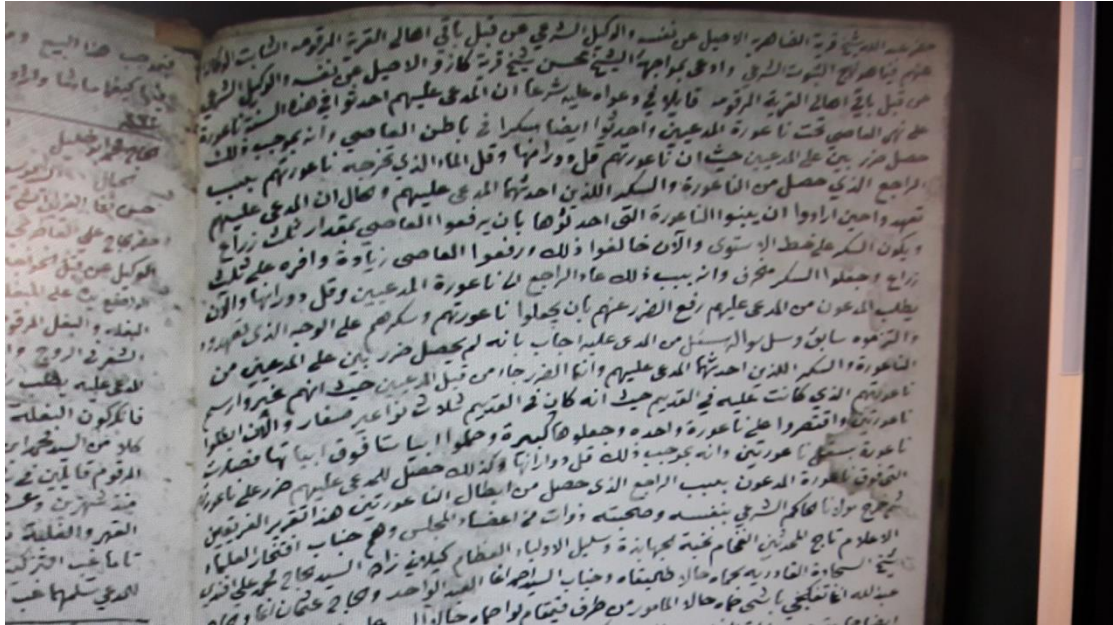


الحريم في إحدى دوائر الحرملك، محظية السلطان تُجهز، استعداداً لمعاشرة
السلطان القانوني.

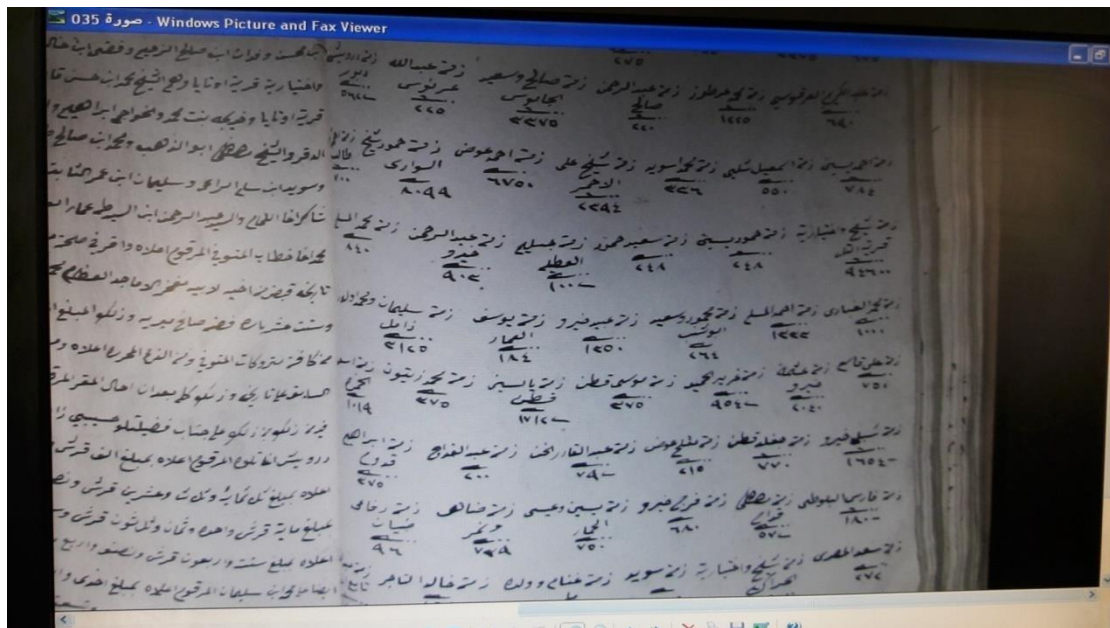


روكسلانة أشهر هوانم سلاطين بني عثمان، تعاملت مع أعدائها بالقتل ودس السم، لدرجة سماها العثمانيون طبّاحة السّم في السراي الهمايوني، رغم ما تسببت من قتل، توفيت عام ١٥٥٨م، قبل أن ترى ابنها على سدة العرش.

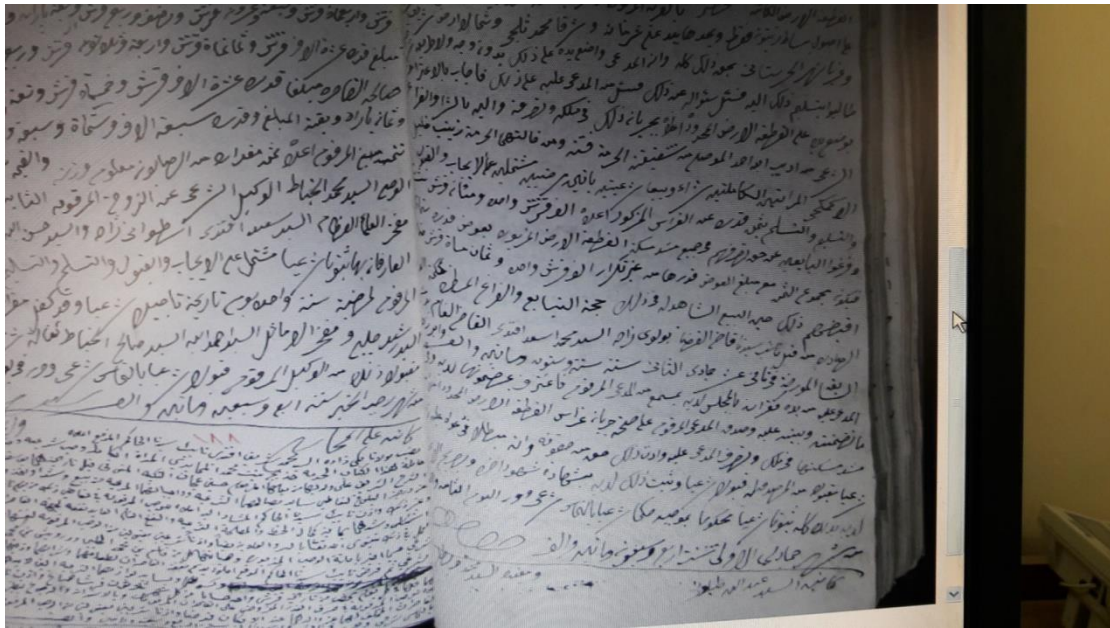
هذه ثلاثة وثائق مقدمة من الأستاذ الدكتور المرحوم محمود عامر ومترجمة من قبله لروحه الرحمة:



تحتوي هذه الوثيقة على التعليمات التي تلزم المحظيات اللواتي تعيشن في الحرملك، وكل مخالفة تستدعي تعرض المخالفة لعقوبات صارمة، وعلى المحظيات مهام تربية الأطفال الذين يُجمعون بموجب نظام الدفشرمه حتى سن العاشرة كما من مهامهم إسعاف مرضى الديوان الهماي، شريطة خروجهنّ محجبات ورفقة من الوصفات وعدد من الخصيان، ويحذر عليهنّ التحدث مع أحد.



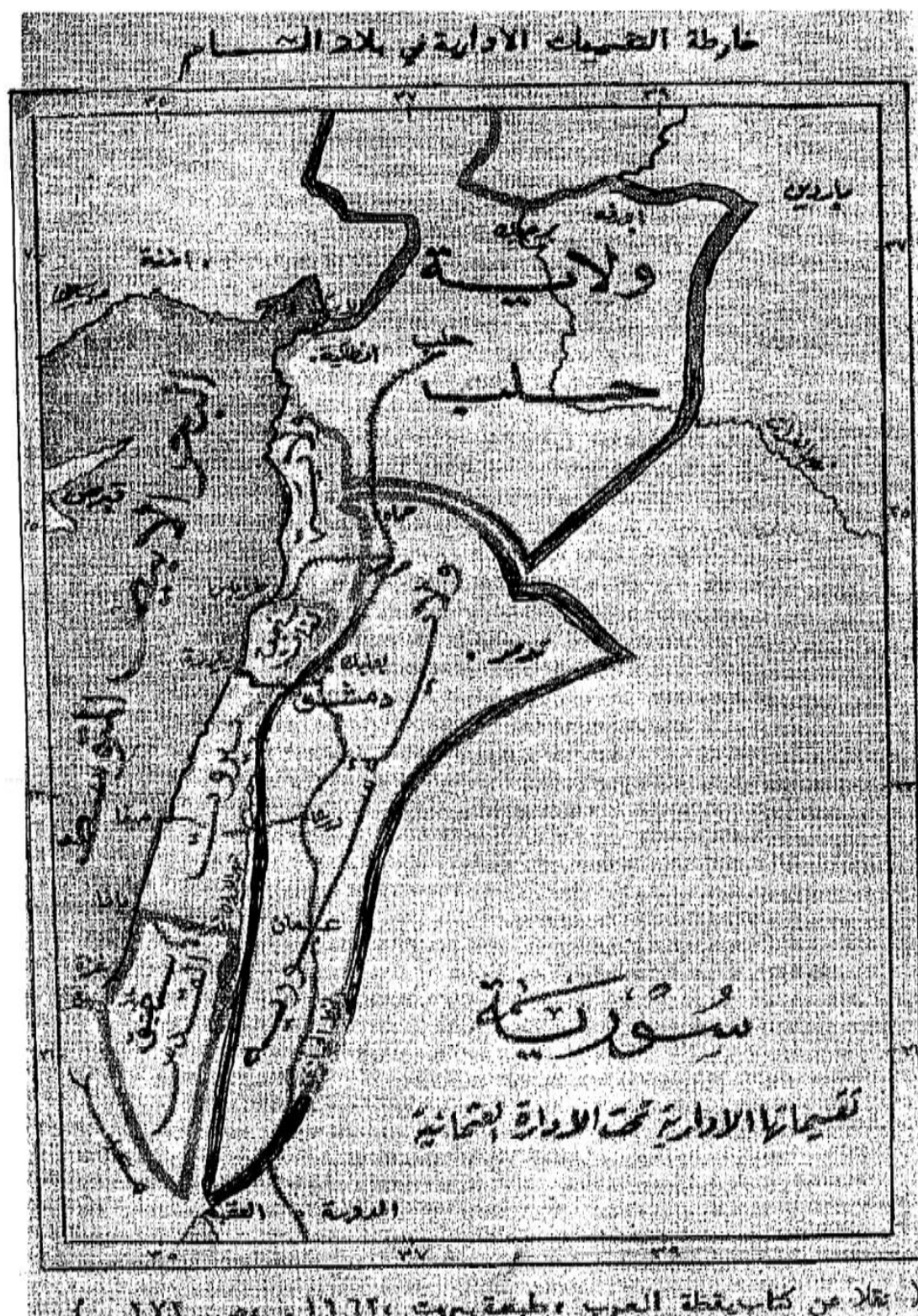
تحتوي هذه الوثيقة على متطلبات المحظيات، وأيضاً قائمة تضم،
أسماء بعض المتوفين وما تركن، وفي هذه الحالة ترفع لائحة بالتمتلكات
وتسلم إلى أقسام الديوان للبحث عن الورثة وتسليمها التركات.



الوثيقة أعلاه تتحدث عن المحظيات اللواتي جيء بهن من سوق النخاسة، وما عليهن من واجبات بعد تعلم اللغة العثمانية، ثم تدريبهن على كيفية التعامل مع من يختارها السلطان، ومعلومات عن أوقات الخروج والنوم واللباس الصباحي، وساعات الذهاب إلى الحمامات، والتجمع عندما يأتي بائع الإكسسوار، وغيرها من الأمور الأخرى.

وهذه الوثيقة تحتوي أيضاً التعليمات للمحظيات بشأن السلطنة ا، وعلى ما يبدو يوجد لبس في تلك الوثيقة، ولم نتمكن من قراءتها رغم أهمية المعلومات المتعلقة بواجبات المحظيات تجاه السلطنة الوالدة.





مصادر البحث ومراجعته:

أولاً-المصادر:

- ١- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ٥٦.
- ٢- القرآن الكريم، سورة ابراهيم، الآية ٢٢.
- ٣- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٣٠.
- ٤- القرآن الكريم، سورة الحجرات، أية رقم ١١.
- ٥- التلمود، سفر ٤٠، (الله خلق اليهود ليحكموا العالم).
- ٦- آقد، كونوز، الوثائق تنطق بالحقائق، ترجم منه الدكتور محمود عامر ٤٠ وثيقة زودني بما يفيد بحثي، وهو لايزال مخطوط في مكتبته، الوثائق هي ١٢١ و ٣٢٥ و ٣٦ و ٧٨، وكل وثيقة من عشرة شرح المضمون ورفض إعطائي صورة عنها، لأنه سيطبعها في كتاب.
- ٧- أرشيف رئاسة الوزراء، سجل الكنيسة، رقم ١٣.
- ٨- ابن إياس، محمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، ط ٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٩- ابن بطوطة، شمس الدين محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
- ١٠- ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، تحقيق: محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ١١- القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م.
- ١٢- دائرة المعارف التركية، المجلد ٦، إستانبول ١٩٥٤م.
- ١٣- دائرة المعارف التركية، المجلد ١١، إستانبول، ١٩٥٤م.
- ١٤- سجلات المحكمة الشرعية، إستانبول، وثيقة رقم ٢٣١٤، سجل رقم ٢٥٩.
- ١٥- فتاوى الأزهر، دار المعارف الإسلامية، مصر.
- ١٦- قانون نامه، محمد الفاتح، البند الثالث والعشرين.
- ١٧- هايدو، المسيحية ينست مما قدمت للعثمانيين، مخطوط في مكتبة جامعة إستانبول، رقم ٤٥١٢.

ثانياً-المراجع العربية:

- ١-الأرناؤوط، محمد، دراسات ووثائق حول الدف شرمة، قدسية للنشر، اريد، ط١، ١٩٩١م
- ٢-البناء،سونيا محمد سعيد، فرقة الانكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، ايتراك، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢.
- ٣-الحسيني، علي، تاريخ سورية الاقتصادي، دار بدائع الفنون، دمشق، ١٩٣٢م.
- ٤-الراقد، صابر مصطفى، الأصول العثمانية، مجلة الهلال، يونيو، لعام ١٩٢٤م.
- ٥-الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج٢، مطبعة الجامعة، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ٦-الصَّبَّاح، ليلي، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ج٢، مؤسسة الرسالة، بيروت شارع سوريا، ط١، ١٩٨٩م.
- ٧-الضيقة، حسن أحمد، الحرم حياته مواصفاته، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٨-الضيقة، حسن، الدولة العثمانية (الثقافة والمجتمع والسلطة)، دار المنتجب، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٩-الادريسي، وفاء، الجواري والغلمان مؤمنون بلا حدود، تونس، ٢٠١٦.
- ١٠-المحامي، محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية العلية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٨م.
- ١١-بايرن، اسماعيل، القبيلة الهائمة، بغداد، ١٩٧٦م.
- ١٢-بيضون، جميل، تاريخ العرب الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع، د.م، ط١، ١٩٩١م.
- ١٣-بيهم، محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، بيروت ١٩٣٥م.
- ١٤-دكاك، حسن أحمد، وقفة حول السراي في الدولة العثمانية، دار المنتخب، بيروت، ١٩٨٢م.
- ١٥-طريه، أنطوان، الأرثوذكس المسيحيون في قبضة الجلاّد، بيروت، ١٩٨٧م.
- ١٦-طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ١٧-عامر، محمود، جواري القصور العثمانية، الهيئة العامة للكتاب، ط١، دمشق، ٢٠١٩م.
- ١٨-عامر، محمود، الماسونية ويهود الدونمه، دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٢م.
- ١٩-عبد الرزاق، عيسى، مختارات من وثائق العصر العثماني، ط١، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ٢٠-عبد السلام، أدهم، الخصي عند المصريين القدماء، الاسكندرية، ١٩٧٦م.
- ٢١-عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩٢٤م، د.ط، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- ٢٢-غانم، خليل، زواج الحكام، مركز الجهاد الليبي، الجماهيرية الليبية، ١٩٧٤م.

٢٣- قفلجمللي، حكمت، التاريخ العثماني رؤية مادية، تعريب فاضل لقمان، دار الجليل، دمشق، د.ت.

٢٤- محمود، سيد محمد سعيد، تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازدهار)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٥- مخلوف، ماجدة، آداب السراي الهمايوني ونظامه، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م.

٢٦- مؤنس، حسين، الجارية روكسلانا تتزوج السلطان سليمان الفاتح، مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت).

ثالثاً-المصادر والمراجع المترجمة:

١-آصاف، عزلتو يوسف بك، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢-أفندي، مطانيوس، الأرثوذكس عماد الدولة العثمانية، برلين، ١٨٧٦م.

٣-ألفريد، أندريا، النساء والشريعة الإسلامية في الدولة العثمانية، ط٥، بوسطن، ١٩٨٩م.

٤-أورتايي، إيلبير، إعادة استكشاف العثمانيين، ترجمة: بسام شيحا، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.

٥-أورخان، جنكيز، طوب قابي سراي، نبوتجي باشي، برلين، ١٨٧٦م.

٦-أوزون، إسماعيل حقي، التاريخ العثماني، دار المعرفة التركية، إسطنبول، ١٩٥٨م.

٧-أوزون، إسماعيل حقي، التشكيلات العثمانية أوجاق القابي قول، مطبعة مؤسسة التاريخ، أنقرة، ١٩٤٣م.

٨-أوغلو، أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح السعداوي، إسطنبول، ١٩٩٩م.

٩-أوغلو، خليل ساحلي، موارد الخزينة العامرة، الأردن، ١٩٨٩م.

١٠-أوغلو، خليل ساحلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، تقديم: أكمل الدين

احسان أوغلو، مركز الأبحاث ارسىكا، إسطنبول، ٢٠٠٠م.

١١-أوغلو، مدحت، التاريخ العثماني المصور، إسطنبول، ١٩٥٤م.

١٢-اينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد أرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢م.

١٣-باشا، بجوى، قبب الوزراء ومراتبهم، مطبعة الرجاء، إزمير، ١٩٧٦م.

١٤-باشا، جودت، تاريخ جودت، مطبعة سي، إسطنبول، ١٩٥٨م.

- ١٥- باشا، عبد الرحمن، نظام السراي الهمايوني، استنبول، ١٢٨٨هـ.
- ١٦- باشا، لطفي، مطالعة لطفي، إسطنبول، ١٢٨٩هـ.
- ١٧- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلها للعربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.
- ١٨- بك، عطا، تاريخ أندرون، باب عالي مطبعة سي، إستانبول، ١٢٩٤هـ، ج ١، ص ٢٥٤ - ٣٩٨.
- ١٩- بك، فريدون أحمد، منشآت السلاطين، ج ٢، الاستانة، ١٢٦٤م، ص ٣٥٦.
- ٢٠- بك، فريدون أحمد، دماء وضحايا الحرمك، استانبول، ١٢٩٩هـ، ص ٢٥٤-٢٥٩.
- ٢١- تولبنتشي، فيرون، عشق السلاطين، بيروت، دار الروائع، (د.ت).
- ٢٢- جلبي، أوليا، رحلة نامه، بورصة، ١٢٨٧م.
- ٢٣- دفيتش، شويب سبيريد، حكومة العالم الخفية، ١٩٥٦م.
- ٢٤- رفيق، أحمد، عثمانلي تاريخي، ترجمة محمود عامر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢٥- رفيق، أحمد، صحايف مظفرات عثمانيات كتاب خانه.
- ٢٦- رفيق، أحمد، تاريخ العالم، إستانبول، ١٣٠٦هـ.
- ٢٧- زكي، عبد الرحمن، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ٢٨- شرف، عبد الرحمن، باب سعادات، عبارة ذهبية اللون (السلطان حامي المسلمين وديارهم)، إستانبول ١٢٨٧هـ.
- ٢٩- شرف، عبد الرحمن، دولت عثمانلي تاريخي، معارف ناظرات جلية سنك، استانبول، ط ١، ١٣٠٩م.
- ٣٠- صولاق، زاده، اليهود الصفويين، إسطنبول، ١٢٨٩هـ.
- ٣١- طورخان، أوغلو محمد، مؤسسة الديوان الهمايوني، ترجمة عبد اللطيف الحارس، إستانبول، ١٩٧٨م.
- ٣٢- طورخان، بابا أوغلو، كيف وصلت نوريانو إلى السراي، إستانبول، ١٩٦٥م.
- ٣٣- فابيان، هنري، مأساة المسيحيين، هنغاريا، ١٩٥٢م.
- ٣٤- فيرو، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة: عبد الكريم الوافي، طرابلس، ليبيا، ١٩٧٣م.
- ٣٥- كوندوز، أحمد، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، ٢٠٠٨م.

٣٦- ليزلي، بيرس، حريم الأمبراطورية المرأة والسيادة في الدولة العثمانية، اكس فلور، ط٥، جامعة أكسفورد، ١٩٩٧م.

٣٧- مارك، بيير، التغيير الاجتماعي والجنسي في إستانبول العثمانية، إستانبول، ٢٠٠٤م.

٣٨- مانسيل، فيليب، القسطنطينية المدنية التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٥٣هـ-١٩٢٤م.

٣٩- مانتران روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

٤٠- مفتي الإسلام، مهام مشيخة الإسلام، إستانبول، ١٢٨٧هـ.

٤١- يشار، أوزجان، مهام الكزلار، إستانبول، مطبعة الهلال، ١٩٨٦م.

٤٢- يشار، أوزجان، أفعال روكسلانة، ترجمة: محمود عامر، دار الفكر، لبنان، ١٩٩١م.

٤٣- يلماز، أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مؤسسة الفيصل، إستانبول، ١٩٨٨م.

٤٤- مؤلف مجهول، المحظية زاهية والسلطان عبد الحميد الثاني، بلغراد، ١٩٥٦م.

رابعاً-الدوريات:

١- اينالجيك، موارد المحاربين العثمانيين، المجلة التاريخية، إستانبول، ١٩٨٧م، ال عدد ٧٦.

٢- الجنابي، بثينة، نظم الحكم والإدارة العثمانية في الوطن العربي، مجلة كلية التربية الأساسية، ال عدد ٧١، ٢٠١١م.

٣- المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، ١٩٧٤م.

٤- الموسوعة العربية الميسرة، ١٩٦٥م.

٥- شعبان، ابراهيم، ستة قرون ارهاب إخصاء وحريم، مقال نشر في مجلة صدى البلد، رئيس

التحرير: أحمد صبري، لبنان، السبت / ٧ سبتمبر / ٢٠١٩م.

٦- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، مكتبة الملك فهد، الرياض، ٢٠٠٠م.

٧- معجم تاج العروس، ج ٢٥.

٨- معجم الغني.

٩- لسان العرب

١٠- معجم الوسيط.

خامساً-الرسائل العلمية:

١-علي، نور، السلطان سليمان القانوني، رسالة ماجستير، دمشق، ٢٠٠٨م.

سادساً-المراجع الأجنبية:

- 1- Aki, kamel marem: padisag anagark. Hdtanbul, defaKS PP58
- 2- William. Blackstone<commentaries on the Laws of England,vog.1.1896,pp35
- 3- Mahmah Raci: kubbe vezirlek devri. Ankara.1989.PP356
- 4- Mustafa . cankizogl: Saray bahcese,Ankara. 1979p245
- 5- Evyiya . celebi: Seyahat name,Ankara.1324.pp267
- 6- Cengiz orhan KSaray Top Kapi. Tercumanlari Hikayati K Istanbul 1987PP56
- 7- Fhri belen 20 yuzul,osmanli tarihi. Istanbul 1974p243
- 8- leshtie pierce, The Imperiah Harem hamayuni, paris,1968pp23
- 9- ismail hakki: osmanh tarihi ci sc94

Research summary:

The study highlights the social and political role of the 'Hamayouni Harem' and its reflection on the Levant (Bilad Al Sham) from 1520_ to _ 1595. This is considered one of the most important periods in the Ottoman Empire.

The period begins by the rule of the Sultan; Sulaiman AL Kanouni who is one of the most powerful Ottoman Sultans. In his custody, the Ottomans Empire reached the farthest places.

Then, his son, Saleen the Second took power.

The study finishes at the end of the Sultan Morad the Third's rule. This period and the later stages represent the strong intervention by the Harem in the governance matters and the beginning of Sultans' absence from battlefields and enjoying the Maids, leaving state leadership to the Gearest Chests and the Maids beyond them.

The study also monitors the most famous Ottoman palaces and their tasks on the administrative and political level. The life of the Maids inside these palaces, the way they came here, and their tasks are also discussed.

The study also highlights the most known Maids of the sixth century, their tasks, like: (inauguration the Geatest Chests, isolating others, killing..., controlling the state path) for their own countries ' interest.

The extraction of the reflection of the political and social role of Maids within the Ottoman state property, specifically, in Bilad Al Sham.

The study depends on a number of Ottoman translated documents and important English, Arabic references.

Eventually, the research assures the role of courtesan in the governance matters and the absence of Sultans, leaving their countries for the Europeans to rule which led to the state collapse of the Ottoman Empire.

=====